

الواقعة

كأنها رأي العين

د. أحمد مصطفى نصير

الواقعة كأنها رأي العين

د. أحمد مصطفى نصير

سورة الواقعة من السور التي تصف مشاهد القيامة وأصناف الناس في الآخرة، فهي كسورة الغاشية والقيامة تعني بوصف الآخرة، وتعتمد في علاجها لقضية القيامة والتصديق بها على ثلاثة أمور، الأمر الأول تقريب الأمور الغيبية التي تتعلق بها وكأنها رأي العين، يقول حنظلة لأبي بكر (نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ)[1]، والثاني التدليل من الواقع المادي الذي نعيشه على الإيجاد من العدم لتقريب فكرة البعث للأذهان فابتدأت بضرب المثال بخلق الإنسان وإماتته وخلق آخرين، والاستشهاد بمخلوقات الله تعالى (الزرع، الماء، النار) للتأكيد على أن الله هو الزارع وهو الذي ينزل الماء من السحاب الثقال وهو الذي ينشأ أصل النار، والإنسان لا يزال يجعل كيف حصل هذا، كل ذلك لتصديق الناس بهذا الكتاب، وأخيرا التذكير بالموت وما يستتبعه من انكشاف عوالم الغيب ورؤيتها حق اليقين.

وقد ابتدأ المولى سبحانه هذه السورة بلفظ (إذا) الذي يفيد الاستقبال ويختص بالدخول على الأمر المتقين[2]، ذلك أن أمر الساعة غيب لا يعلمه إلا الله لكنه مؤكد الوقوع في المستقبل، لا مراء في ذلك، ولذلك استرسلت الآيات في الحديث عن القيامة والتدليل عليها من واقع الناس وحياتهم لتصل إلى التأكيد على وقوعها في ختام السورة بقوله تعالى: **إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ** [الواقعة: 95]، فالسورة تعالج مسألة الإيمان بالساعة، لتؤصل حقيقة وقوعها بما يجعل إيمان الناس بها يرتفع إلى درجة اليقين؛ قال تعالى: **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا** [الواقعة: 1 - 6]، قال تعالى: **وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**

---

[1]) رواه مسلم ج13 ص 303 رقم 4937.

[2]) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج 2 ص 149-150.

مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ[1] مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ [الواقعة: 7 - 14].

قوله: **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ** لا غضاضة أن تقع (إذا) في هذا السياق شرطية، فجوابها (ليس لوقعتها كاذبة)، بمعنى أنه حين تقع القيامة فعلًا ويراها الناس هنا لا يمكن لأي مشكك فيها أو مكذب لوقوعها أن يستمر في التشكيك أو التكذيب، فينتفي حينئذ التشكيك والتكذيب ولا يكون إلا التصديق، ولكنه تصديق مستند إلى رؤية عينية أي بعد أن يصير العلم بها علم شهادة، وليس علم بالغيب، والناس مكلفون بالتصديق بالغيب، وأنى لهم ذلك وقد فاتهم التصديق بها قبل أن تأتيهم، وأضحى الغيب شهادة.

قوله: (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ (**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَقَالَ اقْرَءُوا (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**)[2]، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (أَلَا أُخْبِرُكَ عَنْ مُلُوكِ الْجَنَّةِ قُلْتُ بَلَى قَالَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ مُسْتَضْعِفٌ ذُو طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ)[3]، وقال مجاهد (خافضة لقوم إلى النار ورافعة لآخرين إلى الجنة) [4]، فحينما تقع القيامة تنقلب، وذلك حين يراها الناس حقيقة واقعة أمامهم؛ حيث ينخفض شأن كل من كان يعتز بشيء من الدنيا، فيضحى ذليلا مذهولا عما كان مشغول به، وآخرون كانوا لا يملكون من الدنيا شيئا يستحق أن يوزن، وإذ بالساعة ترفع من شأنهم عند الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[1]) قال مجاهد ثلة: أمة رواه البخاري في صحيحه ج4 ص 1849.

[2]) رواه البخاري ج14 ص 355 رقم 4360

[3]) رواه ابن ماجه ج12 ص 140 رقم 4105 وقد اتخذ الألباني هذا الحديث شاهدا لتصحيح حديث (أهل الجنة الضعفاء المغلوبون) انظر السلسلة الصحيحة ج4 ص 321 رقم 1741

[4]) رواه البخاري ج4 ص 1849

(أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون)[1]، أي انقلبت الموازين رأسا على عقب ولم يبق إلا ميزان يوم الدين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ-تنظف المسجد- أَوْ شَابًّا فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلَ عَنْهَا أَوْ عَنْهُ فَقَالُوا مَاتَ قَالَ أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي قَالَ فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا أَوْ أَمْرَهُ فَقَالَ دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ فَدَلُّوهُ فَصَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ)[2].

قوله: ﴿**إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا**﴾: تكرر لفظ (إذا)، والمناسبة هنا هي ذات المناسبة الأولى، وهي وقوع القيامة، لكن جواب الشرط لا يأتي مباشرة هذه المرة، فقد أتت الساعة وأول علاماتها رجفة الأرض فترجف رجفة شديدة، وكأنها تتداعي للموت حيث اقترب موعد فنائها، إنها سكرات الموت التي تعتري الأرض قبيل انتهاء أجلها، وعندئذ لا يثبت عليها شيء، فالجبال الشامخات التي هي أوتادها لا تثبت في قرار، بل تتفتت قطعا صغيرة وكأنها صوف منفوش في الهواء، قال مجاهد (بست) أي فتت ولتت كما يلت السويق - والسويق طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير [3]- [4]، وقال الفيروزبادي (اللت): الدَّقُّ والشَّدُّ والا يثاقُ والفَتُّ والسَّحْقُ [5]، وهو تصوير شديد التمثيل لما تصير إليه الجبال من التفتت والسحق، فلا قرار يوم القيامة لشيء ولا استقرار، يقول سبحانه (**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ**) (القارعة/5)، فإذا كان هذا هو ما سوف يحدث للكون، فما الذي سوف يحدث للناس؟

---

[1]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 541 رقم 3844 وصححه الألباني صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 95

[2]) رواه مسلم ج5 ص 59 رقم 1588

[3]) المعجم الوجيز – معجم اللغة العربية - ص 330 – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية 1996

[4]) رواه البخاري ج4 ص 1849

[5]) القاموس المحيط ج1 ص 204

قوله: ﴿**وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا[1] ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾: يصير الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف لا رابع لهم، حيث تتزاوج الأرواح مع الأجساد الميتة فتحيا من جديد، كما في قوله: ﴿**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**﴾ [التكوير: 7]، يضم كل صنف منهم ما يزاوجه ويشابهه ويماثله في استحقاق المصير والجزاء، فأصحاب اليمين مع إخوانهم من أهل اليمين، وأصحاب الشمال كذلك والسابقون السابقون مع الأقوام المقربون من الله عز وجل، قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ**﴾ [يس/55-56]، وقال تعالى: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) [الصافات/22].**

قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، فذلك أعظم نعيم للسابقين بالخيرات أن الله جعله أهله ويقربهم إليه في منزلة لم يقترب أحد غيرهم منها، فهم الذين قال الله فيهم (إن رحمة الله قريب من المحسنين) (الأعراف/56)، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (إذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) [2]، أولئك هم عباد الله أهل الله وخاصته، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (إن لله أهلين من الناس) قالوا يا رسول الله من هم؟ قال (هم أهل القرآن أهل الله وخاصته) [3]، وقد فهم بعض السلف من ذلك أن المقربين هم (أول الناس رواحا إلى المسجد وأولهم خروجا في سبيل الله عز وجل) [4].

---

[1]) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:" " وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً "، قَالَ: أَصْنَافًا"، تفسير ابن أبي حاتم ج12 ص 271

[2]) رواه مسلم ج 1 ص 163 رقم 181

[3]) رواه ابن ماجه ج1 ص 78 رقم 215 وصححه الألباني

والمقربون هم أول زمرة تدخل الجنة بل هم الذين يدخلونها بدون حساب، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هَذَا أُمَّتِي هَذِهِ قِيلَ بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ قِيلَ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ قِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ فَأَفَاضَ الْقَوْمُ وَقَالُوا نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَخَرَجَ فَقَالَ هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ أَمِنْهُمْ أَنَا قَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)[1]، فقوله (وعلى ربهم يتوكلون) أي: (يفوضون إليه جميع أمورهم، فلا يفعلون شيئا مما ذكر البتة، لتوغلهم في التوكل، هذا رأي الخطابي ومن تبعه، قال القاضي:(وهو الذي اقتضاه ظاهر اللفظ)[2]

فقوله (لا يسترقون) يعني لا يطلبون الرقية من أحد بل يفعلونها بأنفسهم، وقوله (ولا يتطيرون) للنهي عن التشاؤم وللحض على الفأل الحسن، وقوله (ولا يكتوون) لكراهية التداوي بالكي كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فهم يأخذون بالغزمة لا بالرخصة، فهم لا يتعلقون بالأسباب، ويتعلقون بالله، ذلك أن الكي يوهم بالحسم والشفاء، وهم يلتمسون الأسباب في غيره لكراهية الأخذ به في أول الأمر، فالجرح قد يلتئم بدون كي، والصبر جزء من العلاج، قال ابن عثيمين (**لأن الكي عذاب بالنار لا يلجأ**

---

[4]) نقله بن أبي شيبة في مصنفه عن عثمان بن أبي سودة من طريق الأوزاعي وعيسى بن يونس وجميعهم ثقات ج 4 ص 205 رقم 19339

[1]) رواه البخاري ج17 ص 473 رقم 5270

[2]) محمد الفضيل بن محمد الفاطمي الشبيهي: الفجر الساطع على الصحيح الجامع ج8 ص 75

إليه إلا عند الحاجة) [1]، قال ابن الأثير (**فهذا من صِفَة الأولياء المُعْرِضين عن أسباب الدُّنيا الذين لا يَلْتَفِتون إلى شيء من عَلائِقها. وتلك دَرَجة الخَواصِّ لا يَبْلُغها غيرُهم فأمّا العَوامُّ فَمُرخَّص لهم في التَّداوِي والمعالجات ومن صَبَر على البَلاء وانْتظَر الفرج من اللّه بالدعاء كان من جُمْلة الخوَاصّ والأولياء ومَن لم يصبر رُخِّص له في الرُّقْية والعِلاج والدَّواء)** [2].

قوله: (ثُلَّةٌ [3] مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ): أشار النبي صلى الله عليه وسلم لعدد هؤلاء المقربين في حديثه عن الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فقال صلى الله عليه وسلم (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى صلى الله عليه وسلم وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) [4]، لكن الآيات لم تخبرنا عن صفات هؤلاء المقربين وإنما استرسلت في وصف الجزاء الذي أعده الله تعالى لهم اكتفاء بذكر أنهم هم السابقون، إشارة منها إلى أنهم سابقون في الخيرات ولا يتأخرون عن خير، يقول عمر بن الخطاب أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالا فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما قال فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك؟ قلت مثله وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله قلت والله لا أسبقه إلى شيء أبدا) [5]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب

---

[1]) شرح رياض الصالحين ج1 ص 86

[2]) النهاية في غريب الأثر ج2 ص 621

[3]) قال مجاهد ثلة: أمة رواه البخاري في صحيحه ج4 ص 1849

[4]) رواه مسلم ج1 ص 199 رقم 220

[5]) رواه الترمذي ج 5 ص 614 رقم 3675

- يعني الجنة - يا عبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان) فقال أبو بكر ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة وقال هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال (نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر)[1]، قال تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون: 57-61]، وقد أجملت النبي صلى الله عليه وسلم صفات هؤلاء المقربون بعدما قال (**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**) ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ فَأَفَاضَ الْقَوْمُ وَقَالُوا نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَخَرَجَ فَقَالَ (**هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**) فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ (نَعَمْ) فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ أَمِنْهُمْ أَنَا قَالَ: (سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)[2].

قال تعالى: ﴿**عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ[3] * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا**﴾ [الواقعة: 15 - 26].

جُبل الإنسان على معرفة النعيم بما لذ وطاب من متاع الدنيا الذي ألفه، فجاء وصف نعيم الجنة ليقارنه بما يعرف من نعيم الدنيا حتى يتصور شيئا من نعيم الآخرة، فيزاد زهدا في الدنيا

---

[1]) رواه البخاري ج3 ص 1340 رقم 3466

[2]) رواه البخاري ج17 ص 473 رقم 5270

[3]) وَضَنَ الشيءَ وَضْناً فهو مَوْضُون، والوَضْنُ نسْجُ السريرِ وأَشباهِهِ بالجوهر والثياب، وفي التنزيل العزيز على سُرُرٍ مَوْضونةٍ المَوْضونةُ المنسوجة أَي منسوجة بالدُّرِّ والجوهر بعضها مُداخَلٌ في بعض – لسان العرب ج 13 ص 450

ويشرأب قلبه إلي ما أعده الله تعالى لعباده المقربين، فوصفت الآيات هذا النعيم بالترف والدعة في المجلس والخدمة، واسترسلت في وصفه، حيث صورت أهل الجنة وهم يتلذذون بأصناف بالشراب والطعام والتمتع بالحور العين كما في قوله: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**﴾ [يس: 55]، فشغلهم الشاغل المتعة والتلذذ بالنعيم، وثمة متعة أخرى ولكنها سلبية بنفي الكدر عنهم في الجنة، فهم في سلام واطمئنان، فآذانهم محفوظة من أن تسمع لغوا وما فيه تأثيم، وإنما هو السلام المتبادل بينهم.

قوله (عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ[1]) أي مجلس أهل القربى من الله تعالى، فهم كما أخبر الله تعالى (على سرر موضونة)، أرائك وسرر منسوجة بالدر والجواهر يحملون عليها، كناية عن الترف والرفاهية المطلقة.







فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يهتم لشأن الدنيا حتى أنه كان ينام على الحصير وقد أثر في جنبه، فعن عمر بن الخطاب أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فرأه وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف وإن عند رجليه قرظا مصبوبا وعند رأسه أهب معلقة قال فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (ما يبكيك)، فقلت يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم (أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة) [2].

---

[1]) وَضَنَ الشيءَ وَضْناً فهو مَوْضُون، والوَضْنُ نسْجُ السريرِ وأَشباهِهِ بالجوهر والثياب، وفي التنزيل العزيز على سُرُرٍ مَوْضونةٍ المَوْضونةُ المنسوجة أَي منسوجة بالدُّرِّ والجوهر بعضها مُداخَلٌ في بعض – لسان العرب ج 13 ص 450

[2]) رواه البخاري ج4 ص 1866 رقم 4629

قوله (مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) يتكئون على هذه السرر فينظر بعضهم إلى بعض، قال تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات:42-44]، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (إن أهل الجنة ليتراؤون الغرف في الجنة كما تتراءون الكوكب في السماء) [1]، فهم في أنس مع بعضهم البعض تتقارب سررهم وأرائكهم ليتبادلوا الحديث بينهم، فالحياة الاجتماعية هي من ضمن متاع أهل الجنة.

قوله: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) وصفهم وهم على أرائكهم يتكئون عليها، وقد خلق الله لهم ولدان يطوف عليهم لخدمهم في أبهى حلل تسرهم وأسعد هيئة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا يَشْتَهِي)[2].

وأسنان هؤلاء الولدان في سن الغلمان ثابتة لا تتغير فهم في سن يجذب الأنظار إليهم وبخاصة حين يؤدبون ويهذبون ويقومون بالخدمة، وهو أمر يثير العطف عليهم، لتكون العلاقة بين أهل الجنة وخدمهم علاقة حب متبادل، لا سيادة وسخرة، قال الشوكاني (والمعنى يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون ولا يتغيرون بل شكلهم شكل الولدان دائما) [3]، واختيار الغلمان يعزى لأن أهل الجنة يدخلون الجنة في سن الشباب، والله تعالى يريد أن يمتع أهل الجنة برؤية الولدان وهم في سن صغير، حيث إن أبناءهم يدخلون الجنة في سن الشباب إن ماتوا وهم صغار.

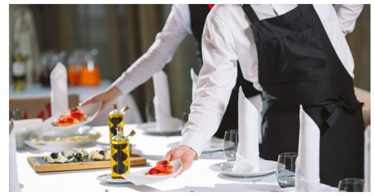
---

[1]) رواه البخاري ج5 ص 2399 رقم 6188

[2]) رواه ابن ماجه ج12 ص 399 رقم 4329 وابن حبان في صحيحه ج16ص416 رقم 7404، وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج3 ص437 رقم 3500

[3]) فتح القدير: وقال (قال الفراء: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يمشط إنه لمخلد)



فأغنياء الدنيا يجدون سعادة في خدمتهم بأبهى صورة ورونقا، بل إن تقديم الخدمة ذاتها له سعر يضاف إلى الطعام والشراب في المطاعم، لاسيما إذا كان أداء الخدمة من عمال متخصصين في حلل وملابس معينة، وهو ما يسمى ببروتوكول فن الخدمة.

قوله (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) يشربون من الأكواب ويُصب لهم فيها بالأباريق، وذلك لون من ألوان الملك،






يتلذذون بالشراب من كأس ينبع شرابه من معين لا ينقطع شرابه أبدا، فكما أنهم انقطعوا عن شرب ما حرمه الله في الدنيا فإنهم يجازون بمثل ذلك في الآخرة فلا ينقطع عنهم الشراب أبدا، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة) [1].

قوله (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ) أي لا ينجم عن شربهم للخمر في الآخرة تلك الآثار الضارة التي تصاحب شربها في الدنيا، فهم لا يصابون من شربها بأي صداع في رؤوسهم أو سكر لعقولهم أو إعياء أو قيء، وإنما شراب الجنة لذة ونعيم لا ضرر يتبعه، ولا ضرار، قال تعالى: **﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ، بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾**

---

[1]) رواه البخاري ج 5 ص 2119 رقم 5253

[الصافات:45-47]، فأهل الجنة لا يحرمون من لذة من لذات الدنيا غير أنه لا يصيبهم ضر منها، فيُصيبوا اللذة ويُمنعوا الضر.






(النَّزْف): نَزْعُ الشيء من مكانه وإذهابه بالتدريج[1]، ويحصل ذلك لشارب الخمر حيث ينتقل من حالة الوعي والفهم والإدراك إلى حالة السكر التي يغيب عنه فيها عقله بالتدريج، قال طنطاوي (وخصت هذه المفسدة بالذكر مع عموم ما قبلها، لكونها من أعظم مفاسد الخمر)[2].

قوله (وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ): يصف الله تعالى لنا لوناً آخر من ألوان نعيم أهل الجنة، فيصف ما يتلذذون به من الفاكهة التي يتخيرونها ما يشاءون حيث المعادن والفيتامينات والسعرات الحرارية، ويتبعه اللحم لاسيما لحم الطير الذي يتميز بقلة الدسم وكثرة الطاقة والبروتين، فهو طعام سهل الهضم، ويشبع البطن، ويقوي الجسد، ويبني العضلات.




يلاحظ أن بعض أهل الدنيا يبيعون دينهم لأجل تحسين دخلهم المادي، فيرتشون ويكسبون الحرام ليشتروا من الطعام ما لذ وطاب، ولا يصبرون على الحلال إن كان كفافا، تقول عائشة رضي

[1]) تفسير الألوسي ج17 ص 111 روح المعاني 23 ص 88
[2]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 3569

الله عنها (لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين) [1]، وتقول رضي الله عنها (إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار قال قلت يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت الأسودان التمر والماء) [2]، فهل حُرم النبي صلى الله عليه وسلم شيئا من نعيم ربه وقد ادخر له ذلك كله في الآخرة؟ حقا له أن يقول لعمر بن الخطاب (ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟) [3].

قوله: (وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ): كناية عن الأنس بالزوجة في الجنة بعدما استراح أهل الجنة بالمسكن الهانئ واستلذوا بما لذ وطاب من الشراب وطعام فإنهم يأنسون لزوجاتهم في الجنة من الحور العين، فـ "الحور" جمع "حوراء" وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها، و"العين" جمع عيناء وهي الواسعة العين، وفي ذلك كناية على شدة جمالها.

فهن كما وصفهن الله عز وجل: (كأمثال اللؤلؤ المكنون)، فصورة اللؤلؤ تجذب العين لرؤيته وتستمتع بالنظر إليه، فأشد ما يكون من حسن المرأة بياضها، ولذلك كان لون الحور العين ناصع البياض أشبه باللؤلؤ، فهذا التشبيه للتدليل على جمالها الحسي تقريبا للأذهان، وكما أن تشبيهها باللؤلؤ المكنون إيحاء بجمالهن المعنوي، فكما أن اللؤلؤ لا يمس، فهو مكنون في صدفه، كذلك الحور العين لم يمسهن من قبل إنس ولا جان، فلا أجمل من حفظها، ولم يمسها أحد قبل زوجها في الجنة، يقول الشوكاني (شبههن سبحانه باللؤلؤ المكنون وهو الذي لم تمسه الأيدي ولا وقع عليه الغبار فهو أشد ما يكون صفاء)[4].

---

[1]) رواه مسلم ج 4 ص 2283 رقم 2974
[2]) رواه مسلم ج4 ص 2283 رقم 2972
[3]) رواه مسلم ج 2 ص 1105 رقم 1479
[4]) الفتح القدير






والتفكر في جمال الحور العين يعين المؤمن على غض البص عن نساء الدنيا مهما أعجبه حسنها، قال النبي صلى الله عليه وسلم لِعَلِيٍّ (يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ)[1]، أي إذا نظرت صدفة لامرأة تمر أمامك فلا تنظر الثانية، فهذه العبادة تحتاج إلى صبر ومجاهدة، ومن يتصبر يصبره الله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحًا ولنصيفها - يعني الخمار - خير من الدنيا وما فيها) [2].

قوله (جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ماذا عمل هؤلاء المقربون حتى يكون ذلك جزاؤهم في الآخرة؟ إنه السبق إلى الخيرات، فقد سبقوا غيرهم فحياتهم في سباق إلى الخيرات، ولم يسبقهم أحد، فهل بقي منهم أحد؟ حقًّا ثلة من الأولين وقليل من الآخرين.

قوله (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) يصف لنا المولى النعيم المعنوي كما وصف لنا النعيم الحسي، ويلخص لنا هذا النعيم بكلمتين (لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا)، بل يظل لسانهم يلهج بالحمد والتسبيح دون جهد، فهم مشغولون بذكر الله دون انقطاع، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس)[3]، فكما أن الجسد يحيى بالنفس، فهم يحيون بذكر الله وتمجيده وحمده.

كما يتنعم أهل الجنة بالسلام فيما بينهم، فلا حسد فيها ولا غل ولا حقد، فبالرغم من التفاضل بينهم في الدرجات إلا أنه لا تباغض بينهم ولا تحاسد، قال سبحانه: **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ**

---

[1]) رواه أبـو داود ج6 ص 54 رقم 1837 وصححه الألبـاني " صحيح أبي داود ج6 ص 364

[2]) ج5 ص 2401 رقم 6199

[3]) رواه مسلم ج 4 ص 2180 رقم 2835

غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ [الأعراف/43]، ولا يدور بينهم حديث إلا اشتمل على إلقاء التحية والتسليم، (إلا قيلًا سلامًا سلامًا).





فلا أسلم من أن يحمل المرء في قلبه الحب تجاه أخيه وسلامة الصدر تجاهه، قال سبحانه: **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾** [الحجر/47]، ولا أسلم ممن ينطق لسانه بالتحية وتمتد يده بالمصافحة، وهو لا يكف عن الحمد والتسبيح، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)[1].

قال تعالى: **﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ، فِي سِدْرٍ [2] مَّخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ، وَمَاء مَّسْكُوبٍ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ، وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ، إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا، لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ، ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾** [الواقعة/7-40].

والذي يجب التنويه عنه في هذا المقام أن الله تعالى ابتدأ في وصفه لنعيم السابقين بما هو أعظم نعيم عند أهل الدنيا، فقال سبحانه (على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين) فملوك الدنيا يسعدون بالسرر والأرائك إذ يمكثون عليها أكثر أوقاتهم، وكلما كانت الأرائك والسرر مريحة ارتاح أكثر يومه، وكذلك الخدمة التي من حولهم... وهكذا، أما أهل اليمين فقد ابتدأ الله تعالى في وصف نعيمهم بما هو أقل شأنًا في الدنيا وهو شجر السدر المعروف بالشوك وكذلك الطلح، لكن الله تعالى يخلقه خلقا آخر فيثمر ويتلون ويسر العين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم

---

[1]) رواه مسلم ج1 ص 180 رقم 81

[2]) السِّدْرُ شجر النبق لسان العرب ج4 ص 354

(قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) [1]، إذن يتدرج نعيم السابقين في الجنة بما هو أعظم شيء يعرفه الملوك في الدنيا، بينما يتدرج نعيم أصحاب اليمين في الجنة بما هو أقل شيء يعرفه أهل الدنيا عن النعيم، مع مراعاة أن أقل نعيم نعرفه في الدنيا يكون يوم القيامة شيئا آخر لم يخطر على قلب بشر.

قوله: (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ) التفات إلى الصنف الثاني من أهل الجنة، إذ لا شك أن السابقين أكثر حظا من النعيم عن المسبوقين، فإذا ما سُبق المسلم في المسارعة إلى الخيرات، ولم يفز بالسبق إلى الطاعات، فأين تكون مرتبته؟ وقد فاته ما أعده الله تعالى للسابقين، لكن لم يفوته النصيب الذي أعده الله لأهل اليمين، قال تعالى: **﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء/95]، فبالرغم من التفاضل بينهما في المنزلة إلا أن الله تعالى قد وعد كلاهما بالحسنى، فما هو النصيب الذي أعده الله تعالى لأهل اليمين؟

قوله (فِي سِدْرٍ [2] مَّخْضُودٍ)، أعد الله تعالى لأهل اليمين الذين تمسكوا بالكتاب وظلوا على الصراط المستقيم، ولم ينحرفوا إلى أهل الشمال، ما لا عين رأي ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويبدأ الله تعالى في وصف نعيمهم بشجرة السدر، وهي شجرة لا تتميز برائحة زكية كالكافور وليس لها ثمر وإنما هي كثيرة الشوك وتستخدم في التنظيف، إذ يغسل بها الميت وتتطهر بها الحائض، تقول أم عطية (دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين توفيت ابنته فقال أغسلنها ثلاثا أو خمسا أو أكثر من

---

[1]) رواه البخاري ج3 ص 1185 رقم 3072

[2]) السِّدْرُ شجر النبق لسان العرب ج4 ص 354

ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر واجعلن في الآخرة كافورا) [1]، وذلك لما فيه من التكريم للميت حيث يغسل بالسدر للتنظيف لا للتطهير [2]، كما أن الحائض تغسل دم الحيض بماء وسدر، فعن أم قيس بنت محصن تقول: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن دم الحيض يكون في الثوب قال " حكيه بضلع واغسليه بماء وسدر[3]، قال الفيروز آبادي: لأن السدر ينظف الجسم [4].





فما المقصود من ذكر السدر في مقدمة نعيم أهل اليمين؟ قبل أن نستطرد في الإجابة نود أن ننوه إلى أن الله تعالى ينزع ما في صدور أهل الجنة من غل حتى لا يؤثر التفاضل بينهم في المنزلة والدرجة على العيش الهانئ الذي يتمتعون به في الآخرة، ولا شك أن هذا يكون في مبتدأ دخولهم الجنة، إذ يجب تنقيح الصدر من الغل قبل الاسترسال في النعيم والمتاع، ولو أن وظيفة السدر في الدنيا كما ذكرنا التنظيف، وكان أول نعيم أهل الجنة الطهارة المعنوية بنزع ما في صدورهم من غل، وقد علمنا أهمية سلامة الصدر حتى في مبتدأ عمر النبي صلى الله عليه وسلم حينما شق صدره وغسل حظ الشيطان منه [5]، فإنه يستظهر لنا شيئا من وظيفة السدر لأهل الجنة لاسيما، وقد نزل أهل اليمين منزلة عند ربهم هي دون السابقين، فتأخروا عنهم لما شغلوا به من

---

[1]) رواه مالك في الموطأ ج1ص222 رقم 520 ورواه البخاري ج1ص 422 رقم 1195

[2]) نيل الأوطار ج4 ص 63 للشوكاني

[3]) رواه أبو داود ج 1 ص 153 رقم 363 وصححه الألباني

[4]) المهذب ج1 ص 238

[5]) رواه أحمد في مسنده ج3 ص 121 رقم 12243، وغيره بإسناد صحيح انظر صحيح ابن حبان ج14ص 249 رقم 6336

المباحات، ولم يتسارعوا على الخيرات، وإن لم يحيدوا عن جادة الصواب، لذلك يبدأ الله تعالى في تصوير نعيمهم في الآخرة من الأدنى إلى الأعلى، فها هي شجرة السدر لا تتميز بشيء يعرف عنها غير التنظيف، فيتمتعون بنزع ما في صدورهم من غل ابتداءً.

ومن جهة أخرى فإن شجرة السدر المذكورة في القرآن غير شجرة السدر المعروفة في الدنيا، ذلك الله يخلق لهم هذا السدر خلقا آخر فيبدل شوكه ليصير إلى ثمر، أي يخضد شوكه كي لا يكون فيه شوك)[1]، إذ أقبل أعرابي يوما فقال: يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما هي قال: السدر فإن لها شوكا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (في سدر مخضود) يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمرا تفتق الثمرة معها عن اثنين وسبعين لونا ما منها لون يشبه الآخر) [2]، وهكذا يصور الله تعالى لنا أدنى متاع الدنيا بصورة غير التي نألفها، وإنما هو سدر مخضود، قال ابن عاشور (وصف بالمخضود أي المزال شوكه فقد كملت محاسنه بانتفاء ما فيه من أذى) [3].

قوله (وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ) "الطلح" هو شجر العضاه، واحدة طلحة وهو من شجر الحجاز ينبت في بطون الأودية شديد الطول غليظ الساق، من أصلب شجر العضاه عودا وأغصانه طوال عظام شديدة الارتفاع في الجو ولها شوك كثير قليلة الورق شديدة الخضرة كثيرة الظل من التفاف أغصانها وصمغها جيد وشوكها أقل الشوك أذى ولها نور طيب الرائحة وتسمى هذه الشجرة أم

---

1) لسان العرب ج3 ص 162

2) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 518 رقم 3778 قال الذهبي في التلخيص صحيح. وصححه الألباني لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 266 رقم 3742

3) محمد الطاهر ابن عاشور التحرير والتنوير ج1 ص 4268

غيلان وتسمى في صفاقس غيلان [1]، ويدخل في مفهوم (الطلح) كذلك شجر الموز [2] لاشتراكهما في وفرة الظل [3].

والمنضود: المتراص المتراكب بالأغصان ليست له سوق بارزة، فإذا خرج من أكمامِه فليس بِنَضِيدٍ[4]، قال الرازي (ذكر تعالى الشجر المقصود منه الورق للاستظلال به، والشجر المقصود منه الثمر للاستغلال به، فذكر النوعين... وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق والنظر إليه والاستظلال به، وتارة يقصد إلى ثمارها، وتارة يجمع بينهما، لكن الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، ويجمعها نوعان: أوراق صغار، وأوراق كبار، والسدر في غاية الصغر، والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر، فقوله تعالى: (في سدر مخضود * وطلح منضود) إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظرا إلى أوراقها) [5].

ومن جماع الآيتين يتبين لنا أن المكان الذي يعيش فيه أهل اليمين وافر الأشجار والأوراق مثمر لا شيء يكدره ولا شوك يشوب منظره، تماما مثل قوله سبحانه: ﴿**وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ**﴾ [ق/10]، وقوله سبحانه: ﴿**وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ**﴾ [الشعراء/148].

---

1) محمد الطاهر ابن عاشور التحرير والتنوير ج1 ص 4268

2) التحرير والتنوير ج1 ص 4268

3) روي ذلك عن ابن عباس وابن كثير ونسب إلى علي بن أبي طالب

4) لسان العرب ج3 ص 423

5) مفاتيح الغيب لأبو بكر الرازي – سورة الواقعة الآية 28 -29

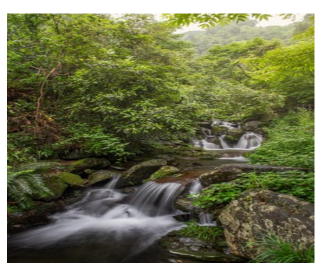
قوله (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) فالله تعالى يصف لنا الجنة وكأنها رأي العين، حيث يتمتع أهلها بالظل الممدود أيا ما كانوا وحيثما ذهبوا، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة لشجرة يسير الركب في ظلها مائة سنة واقرؤوا إن شئتم (وظل ممدود)[1]، فالطقس في الجنة يميل إلى الاعتدال، قال تعالى: ﴿**لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا**﴾ (الإنسان/13-14).





قيل: ("ليس هنالك - يعني في الجنة - ليل، إنما هو ضوء ونور، يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو، ويأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا، ويسلم عليهم الملائكة)[2].

قوله (**وَمَاء مَّسْكُوبٍ**)، ويجتمع بهاتين الصورتين منظر الماء وهو يسكب أمامهم، يجري في غير أخدود لا ينقطع عنهم أبدا، (وفي ذلك إشارة إلى أسباب النزهة المعروفة في الدنيا وهي الأشجار وظلالها والمياه والأنهار واطرادها) [3]، فذلك كله من أسباب الرغد في العيش، وبذلك يكتمل للعين متعتها وهي تتصور الجنة وقبل التلذذ بثمارها والأنس بنسائها والاستروح بظلالها ومائها.


[1]) رواه البخاري ج3 ص 1187 رقم 3080

[2]) كنز العمال ج14 ص 491 رقم 39386

[3]) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن – الواقعة الآية 31

قال المفسرون ماء جاري من غير أخاديد، قال الشربيني (أي: جار في منازلهم في غير أخدود لا يحتاجون فيه إلى جلب ماء من الأماكن البعيدة ولا إدلاء في بئر كأهل البوادي، فإن العرب كانت أصحاب بادية وبلاد حارّة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك)[1]

قوله (**وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ**) تأتي هنا لحظة الاستمتاع والتلذذ بما طاب من فاكهة الجنة، وهي فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة.







قوله (**وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ**) أي مصونة، كناية عن لذة الاستمتاع بالفرش مع نساء أهل الجنة، قال القرطبي (الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة ولم يتقدم لهن ذكر ولكن قوله عز وجل (**وفرش مرفوعة**) دال لأنها محل النساء فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهن وكمالهن) [2]، ولهذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى الفرش وأن النساء منوط بهن حفظها، فقال: (**فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوَطِّئَنَّ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ**)[3].

قوله (**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا**)، فقد جاءت امرأة عجوز النبي صلى الله عليه وسلم تقول له: يا رسول الله ادع الله لي أن يدخلني الجنة فقال لها يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز وانزعجت المرأة وبكت ظنا منها أنها لن تدخل الجنة فلما رأى ذلك منها بين لها غرضه أن العجوز

---

[1]) تفسير السراج المنير ج1 ص 4460
[2]) القرطبي ج 17 ص 180
[3]) رواه ابن ماجه ج5 ص 446 رقم 1841 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج1 ص311 رقم 1501

لن تدخل الجنة على هيأتها وهي عجوز بل يعيد الله إنشاءها خلقًا آخر فيدخلها الجنة في سن الشباب، بكرا وتلا عليها قول الله تعالى (**إنا أنشاهن إنشاء فجعلناهن أبكارًا عربًا أترابًا**) [1]، فيجعلهن في أبهى صورة لأزواجهن في الجنة، وكأنهن لم ينكحن من قبل.

وهن عربًا؛ أي محببات لهم [2]، فيأنس الرجل من المرأة جمالها وحسنها وهي تتحبب إليه هي بقلبها، ويتحبب هو إليها بقلبه، وهكذا يعشق أهل اليمين زوجاتهم من أهل الجنة وتعشق نساء الجنة أزواجهن من أهل الجنة، قال ابن عاشور (**بأن تكثر الضحك بمرأى الرجل أو المزاح أو اللهو والخضوع في القول أو اللثغ في الكلام بدون علة أو التغزل في الرجل أو المساهلة في مجالسته والتدلل وإظهار معاكسة أميال الرجل لعبا لا جدا وإظهار أذاه كذلك كالمغاضبة من غير غضب بل للتورك على الرجل**) [3]، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط إن مما يغنين:؛ نحن الخيرات الحسان أزواج قوم كرام؛ ينظرن بقرة أعيان؛ وإن مما يغنين به:؛ نحن الخالدات فلا يمتنه نحن الآمنات فلا يخفنه؛ نحن المقيمات فلا يظعنه**) [4]، وهكذا يذكرنا قول الله تعالى (عربا) في تغزل نساء الجنة لأزواجهن بحديث النبي صلى الله عليه وسلم (لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا) [5].

---

[1]) حسن أخرجه عبد بن حميد والترمذي والبيهقي والطبراني والبغوي - غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام - محمد ناصر الدين الألباني ج1 ص 215 رقم 375

[2]) قاله مجاهد وذكره عنه البخاري ج 4 ص 1849

[3]) التحرير والتنوير - مرجع سبق ذكره

[4]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج5 ص 149 رقم 4917 صححه الألباني انظر الجامع الصغير ج 1 ص 245 رقم 2441

[5]) رواه الترمذي ج 3 ص 476 رقم 1174 وصححه الألباني

أما كونهن أترابا: أي على سن واحد لا تفاوت بينهن في الشباب والحسن، فلا يقع بينهن تحاسد أو تباغض لأجل ذلك ولا يشعر الرجل بنقص في إحداهن عن الأخرى، فهن أترابا أي متساويات في كل شيء بما لا يمكن تفضيل إحداهن على الأخرى.

قوله (لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ) وفي الختام يؤكد المولى سبحانه وتعالى أن هذا النعيم السابق ذكره خاص بأصحاب اليمين فلا يشاركهم فيه غيرهم، فمن هم أصحاب اليمين؟ فأهل اليمين اتصفوا بهذا الاسم لأنهم كانوا يتبعون النبي صلى الله عليه وسلم في كل شيء سواء أكان عادة أم عبادة، وسواء أكان معقول المعنى أو غير معقول المعنى، إذ لما كان النبي صلى الله عليه وسلم - كما تخبرنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها – يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله [1]، وكنا مطالبين بأن نحتذي حذو النبي صلى الله عليه وسلم في كل شيء لقوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾** [الأحزاب: 21]، فكان مقتضى ذلك أن يحب المؤمنون التيمن في كل شيء كما كان يحبه النبي صلى الله عليه وسلم، ولأنه اتبعوا سنته هذه فكان ذلك دليل على إتباعهم له في كل صغيرة وكبيرة، ولذلك سموا بأصحاب اليمين لأجل هذا الاتباع، وسبحان الله نجد في المقابل أن أهل الغرب وبلاد الكفر قد تعودوا أن يأكلوا بالشمال ويكتبوا بالشمال ويقودوا سياراتهم من الناحية الشمال ويقوموا بأفعالهم دون قصد منهم بالشمال، ولعل ذلك من معجزات القرآن الكريم، ولقد غضب النبي صلى الله عليه وسلم عندما رأي أحد أصحابه يأكل بالشمال فنهاه عن ذلك، فرد عليه قائلا (**لا أستطيع**) فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (**لا استطعت**) فشُلَّت يده.

قوله (**ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ**) ومعظمهم من أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأنها أكثر أهل الجنة مقارنة

[1]) رواه البخاري ج 1 ص 74 رقم 166

بالأمم التي سبقتها، قال النبي صلى الله عليه وسلم (إني لأرجو أن يكون من تبعني من أمتي ربع أهل الجنة) قال: فكبرنا ثم قال (**إني لأرجو أن يكونوا الثلث**) قال فكبرنا ثم قال (**إني لأرجو أن يكونوا الشطر**) قال: فكبرنا [1]، وفي رواية: فتلا نبي الله صلى الله عليه وسلم (**ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين**) [2].

قال تعالى: **وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (43) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (46) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (52) فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ** [الواقعة: 41 – 56].

هنا تلتفت السورة إلى الصنف الثالث والأخير من الناس يوم القيامة، فقد سبقت أن بينت الصنفين الأولين اللذين يشتركان معا في النعيم، وهنا يأتي الصنف الثالث لكنه ليس في نعيم ولا في سلام، وإنما هم في الجحيم والعذاب المهين، أصحاب هذا العذاب هم أصحاب الشمال.

قوله (**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ**) (41) فأول صفة يصفهم الله بها أنهم أصحاب الشمال؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب

---

[1]) رواه البخاري ج4 ص 1767 رقم 4464

[2]) رواه بن حبان ج14 ص 341 رقم 6431 وقال شعيب الأرنؤوط صحيح الإسناد، وصححه الحاكم في مستدركه ج4 ص 621 رقم 8721 وقال الذهبي في التلخيص صحيح

بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله)[1]، فأصحاب الشمال لا يهتدون بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يقبلون على الخيرات، وإنما يولون وجهتهم نحو أبواب اللذات والشهوات وبإسراف، ولا يتبعون إلا سنة الشيطان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) [2]، هكذا يصفهم النبي صلى الله عليه وسلم كما سيخبره الله (لا تدري ما أحدثوا بعدك)، فلا يعجبهم الدين كما أنزله الله، بل يريدون أن يبدلوا فيه ويغيروا ويحدثوا، والله تعالى قال في كتابه: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة: 3]، فلا خير في أي إحداث في أمور هذا الدين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وإنما الواجب الإتباع لسنته وحسب، أما من يبتدع ولا يتبع فهو في ضلال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (**إن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة**) [3].

قوله (**فِي سَمُومٍ**[4] **وَحَمِيمٍ**[5] **(42) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ**[6] **(43) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ**)، تصف لنا الآيات حال هؤلاء الضالين يوم القيامة وقد تبدل تبدلاً جزريًّا، فهؤلاء المترفون كانوا في الدنيا منعمين بخيراتها ولا يشكرون ربهم على نعمه، ويوم القيامة يبدأ عذابهم بالسموم والحميم، فكم عاشوا هانئين بمكيفات الهوائية حتى لا يشعروا تغيير درجات الحرارة من حولهم، ولا غبار في ذلك شريطة أن يكون مصدر هذا الترف المال الحلال، وشريطة ألا

---

[1]) رواه مسلم ج3 ص 1598 رقم 2020

[2]) رواه البخاري ج 5 ص 2391 رقم 6161

[3]) رواه مسلم ج2 ص 592 رقم 867

[4]) السَّمُومُ: الرِّيحُ الحارَّةُ تكونُ غالباً – راجع القاموس المحيط ج 1 ص 1451 -

[5]) الحَمِيمُ: الماء الحارّ - قال ابن الأثير وأصلها من الحَمِّ الحرارة ومن حُمَّة ِ السِّنان وهي حِدَّتُه وأَتيته حَمَّ الظَّهيرةِ أي في شدة حرها – راجع لسان العرب ج 12 ص 150

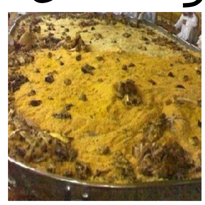
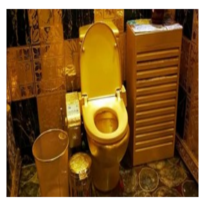
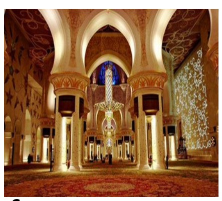
[6]) قال القرطبي: اليحموم في اللغة: الشديد السواد - الأَحَمُّ: القِدْحُ والأَسْوَدُ من كُلِّ شيءٍ كاليَحْمومِ – اليَحْمومُ: الدُّخانُ، راجع القاموس المحيط ج1 ص 1418

يمنعك هذا الترف من الجهاد في سبيل الله والتزام الصلوات الخمس في المساجد، لكنهم اليوم لما تكاسلوا عن الطاعات رغبة في الترف فقد عوملوا بعكس ما رغبوا فيه من قبل إذ أضحت حياتهم بلا ترف ولا لعب فلا يجدون فيها إلا السموم والحميم، حتى إن ما يستروحون به من الشقاء والعذاب لا يكون إلا لون آخر من العذاب (**وظل من يحموم لا بارد ولا كريم**) قال الألوسي (والمعنى أنه ظل حار ضار.. علي سبيل التهكم والتعريض بأن الذي يستأهل الظل الذي فيه برد وإكرام غير هؤلاء) [1].






قوله (**إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ**) (45) قال ابن عباس (مترفين) أي (منعمين)[2]، فمقدمة أسباب شقائهم الترف وترك الزهد أو التوسط والاعتدال


فإذا كان التباهي في المساجد مكروه، فمن باب أولى كراهية التباهي بالبيان ووسائل النقل والطعام وخلافه من أمور الدنيا، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ**)[3]، **قَالَ أَبُو ذَرٍّ: إذا زَوَّقْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّبَارُ عَلَيْكُمْ**)[4]، وفي ذلك جملة فوائد تربوية على النحو التالي: -

---

[1]) روح المعاني ج27 ص 143

[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج12 ص 277

[3]) رواه ابن ماجه ج2 ص 445 رقم 731 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج1 ص 124 رقم 604

[4]) رواه ابن أبي شيبة ج10 ص 547 رقم 30864

أولًا: أن النعيم لا يدرك بالنعيم، فها هم أصحاب الشمال أرادوا ترفا ونعيما، فلم ينالوا ما يريدون، إذ فاتهم ما أعده الله تعالى لأهل اليمين (وظل ممدود)، فصار ظلهم من يحموم، انظر المفارقة والحسرة لو أنهم اتبعوا طريقهم.

والمجد لا يشرى بقولٍ كـاذبِ = إن كنت تبغي المجد يومًا فانصبِ

قال ابن القيم: (وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة فإن قدر التعب تكون الراحة)[1].

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ... وتأتي على قدر الكريم الكرائمُ

ويكبر في عين الصغير صغيرُها... وتصغر في عين العظيم العظائمُ

فإنه على قدر التعب تكون الراحة، وقال ابن القيم: (وإن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق، تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هم له ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلًا استراح طويلًا، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة والله المستعان ولا قوة إلا بالله وكلما كانت النفوس أشرف والهمة أعلا كان تعب البدن أوفر وحظه من الراحة أقل)[2].

كما قال المتنبي:

وإذا كانت النفوس كبارًا... تعِبت في مرادها الأجسامُ

ثانيًا: أن متاع الدنيا ليس مقصودًا لذاته، فليس المقصود منه الترف والإسراف والمخيلة – كما قصده أصحاب الشمال لذاته – وإنما يقصد منه التزود به للتقوي على طاعة الله تعالى، فإنما هو وسيلة يستعان بها على عبادة الله تعالى، فالسيارة الفارهة كالسيارة العادية كلاهما غايته قطع مسافات طويلة في وقت

---

[1]) مدارج السالكين ج2 ص 167

[2]) مفتاح دار السعادة ج2 ص 15

قصير لأجل عمل الخيرات والسبق إليها، فيوفر العبد وقتًا يمكن من خلاله أن يستفيد به في الإكثار من الذكر والصلاة والعلم والشكر والعمل والصدقات، وهكذا سائر متاع الدنيا إن قصد لذاته غر صاحبه، وإن استعان به صاحبه على طاعة الله أفاده، قال ابن خلدون: (واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة، ومن فقد المطية فقد الوصول، وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر، أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله، وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية، إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة، حتى تصير المقاصد كلها حقًّا وتتحد الوجهة)[1].

أما الذين يقصدون متاع الدنيا لذاته فهؤلاء لا يرجون لقاء الله، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ، أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ [يونس: 7-8]، وقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَا أَبَا ذَرٍّ أَتُبْصِرُ أُحُدًا قَالَ فَنَظَرْتُ إِلَى الشَّمْسِ مَا بَقِيَ مِنْ النَّهَارِ وَأَنَا أَرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُرْسِلُنِي فِي حَاجَةٍ لَهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا أُنْفِقُهُ كُلَّهُ إِلَّا ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ وَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَعْقِلُونَ إِنَّمَا يَجْمَعُونَ الدُّنْيَا لَا وَاللَّهِ لَا أَسْأَلُهُمْ دُنْيَا وَلَا أَسْتَفْتِيهِمْ عَنْ دِينٍ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ)[2].

ثالثا: أن الترف يخيب الآمال أن تسرع للطاعات، ويبعد القلب عنها ويجعلها تصد عن سبيل الله: ذلك أن أصحاب الأموال والترف والنعيم أكثر حرصا على هذا النعيم، ولذلك تجدهم يضنون بأوقاتهم وطاقاتهم أن يبذلوها في سبيل الله بل ويبخلون أن ينفقوا أموالهم أو يتنازلوا عن شيء من النعيم والترف في سبيل الله تعالى، لاسيما وقد سبقهم أهل السبق لأعمال الخير، فيفرحون

[1]) مقدمة ابن خلدون ج1 ص 104
[2]) رواه البخاري ج5 ص 215 رقم 1319

أنهم سبقوا لذلك ولم يتكلفوا عبء ومعونة المشاركة فيها، وقد سقط عنهم واجب أدائها الكفائي بمسارعة إخوانهم لذلك، بل أحيانا يحدث منهم التمادي حينما يدعوهم أهل السبق للخيرات للمشاركة في هذا الفضل، حيث يصدون عن سبيل الله حتى لا يغرموا نفقة أو يتحملوا طاعة لأجل الله تعالى، حتى ينقلب أهل الترف إلى أهل محاربة للرسل وأتباعهم، يقول سبحانه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [سبأ/34].

رابعًا: أن الترف مفسدة وسبب للمهلكة، يقول الله عز وجل: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء/16]، فالفسق والفجور لا يأتي غالبًا إلا بعد الترف والنعيم، فشاربي الخمر ومدمني المخدرات ومعتادي الزنا، كل هؤلاء عاشوا في الترف قبل أن يفسقوا، ملكوا قوتهم طعامهم وشرابهم ولباسهم ومسكنهم، وزادت عليهم النعمة وفتحت عليهم الدينا بما يفيض عن حاجاتهم، فما بقي من أوقاتهم وأموالهم وصحتهم لم يجدوا مصرفا له، وفي ذات الوقت لم يسارعوا مع إخوانهم لصرف ذلك في الخيرات، فلم يدركوا هذا الفضل، بل وقعوا في حبائل الشيطان ففسقوا بما ملكوا، ووقعوا في غواية الشيطان بما طمعوا، وفعلوا المعاصي والفواحش بعدما استعرت شهوتهم وصاروا بغاة حيث لم يجدوا لمطامعهم منتهى، فاستحقوا عذاب الله في الدنيا قبل الآخرة، (**أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**).

قوله: (**وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ**): إيضاح للعلة الثانية التي أوقعت أصحاب الشمال في هذا المصير المشئوم، ألا وهي الإصرار على الحنث العظيم، (**الحِنْثُ الخُلْفُ في اليمين حَنِثَ في يمينه حِنْثًا وحَنَثًا لم يَبَرَّ فيها، والحِنْث الذَّنْبُ**

العَظيم والإِثْمُ، وقيل هو الشِّرْكُ)[1]، وقد اختلف العلماء في المقصود بالحنث العظيم، فمنهم من قال أن المقصود بذلك قسمهم (**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت**)[2]، وقيل المقصود ارتكاب كبائر الذنوب وفي مقدمتها الشرك[3].. وهكذا، وقد رجح ابن عباس المقصود بـ (**الحنث العظيم**) (**الذنب العظيم**)[4]، أي أنهم لم يصدقوا في عهد ولم يبروا في قسم، وإنما كانوا ينكثون عهودهم ويحنثون في قسمهم.

وكثير من العلماء فسر الحنث العظيم بالشرك بالله، لأن المشرك قد حنث في العهد الذي أخذه الله عليه في عالم الذر؛ كما في قوله: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾** [الأعراف/172]، فالإصرار على الشرك نوع من المجادلة يصل بصاحبه إلى الكبر، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [غافر/56].

وهنا وقفة بشأن إصرار أصحاب الشمال على الشرك بالله، وقد ذمهم الله فقال: **﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾** [81-82]؛ حيث تجد شركهم بالله ينعكس على تعاملاتهم، فكما حنثوا عهدهم مع الله، فإنهم يحنثون مع الناس بالكذب والخداع والغش والتدليس والافتراء... إلخ، بل ويصرون على ذلك، فقد جمعوا في قلوبهم كل خبيث، فضلاً عن الإصرار على المعصية، وهو ضرب من المعاندة والاستكبار، تأمل حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي دعا فيه على الرجل لم يطعه عندما أمره أن يأكل بيده اليمنى (كل بيمينك)، فقال (لا أستطيع) فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا استطعت) فشلت

---

[1])– لسان العرب ج2 ص 138 -

[2]) انظر الألوسي في روح المعاني: نقلا عن تاج الدين السبكي.

[3]) هذا قول لابن عباس نقله عنه ابن كثير ج7 ص 538

[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج12 ص 277

يده، انظر ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك؟ قال صلى الله عليه وسلم (ما منعه إلا الكبر) [1].

قوله: (**وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ**)، تلك هي العلة الثالثة لأسباب شقاء أصحاب الشمال، وهي تكذيبهم بالبعث؛ أي: إنهم كانوا لا يرجون حسابًا، لا يظنون أنهم يدينون لله بالجزاء، يكذبون باليوم الآخر رغم علمهم به؛ كما في قوله سبحانه: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [النمل/14]، يكذبون بالحق الذي هو واقع بهم، ويحتجون لذلك باستبعاد واستغراب إعادة الحياة للأموات وأنهم يبعثون بعد أن صاروا ترابًا وعظامًا، ويستشهدون لذلك بآبائهم الأولين لم يبعث منهم أحدٌ بعد موته، والقرآن يرد عليهم بأنهم مجموعون، ولم يزد على ذلك، آمرًا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه والناس أجمعين أنهم مجموعون إلى ميقات يوم القيامة الذي لا يعلمه إلا الله؛ أي: إن هذه الأمر غيبي ولا بد من الإيمان به؛ قال سبحانه: ﴿**قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الجاثية/26]، وهكذا يرد القرآن عليهم بتأكيد حقيقة البعث التي حاولوا نفيها، وتأمل في طريقة الرد القرآني عليهم بكلمة واحدة (لمجموعون)، قال تعالى: ﴿**مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ [الواقعة/28]، فهذا الرد هو إجمال يليه بعد ذلك تفصيل بالاستشهاد بخلق الإنسان والزرع والحرث وإنزال الماء وإيقاد النار كما سنعرض له.

قوله: (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (52) فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ [2] (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)،

---

[1]) رواه مسلم ج 3 ص 1599 رقم 2021

[2]) الهيم: البهائم – قال مجاهد الإبل الظماء، انظر البخاري 4 ص 1849

لقد نزلت سورة الواقعة لتصور واقع حياة أصحاب الشمال الذين يكذبون بيوم الدين، ماذا يكون مصيرهم في الآخرة؟ ولذلك يأتي التعقيب القرآني على تكذيبهم بالتأكيد على أن هؤلاء الضالون المكذبون بيوم الدين الواقع لا محالة سوف يعيشون هذا اليوم كما أنهم يعيشون أيامهم هذه في الحياة الدنيا مع الفارق، فقد كانوا في الدنيا يأكلون ويملئون البطون، ويشربون كالبهائم، وحالهم في الآخرة كذلك الأكل والشرب، ولكن في عذاب مهين، أي سوف يأكلون وسوف يشربون لكن طعامهم ليس ترفا كما كان في الدنيا وشرابهم ليس لهوا كما كان في الحياة الفانية، وإنما يأكلون من شجر جهنم، شجرة سماها المولى سبحانه (زقوم)، فما هذا الزقوم؟ قال تعالى: **﴿شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾** [النازعات/62-65]؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه؟) [1]، وذلك يذكرنا بمن يأكل طعامه في الدنيا ولا يتقي الله تعالى أمن حلال أم من حرام، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به) [2]، وليت العذاب يقف عند حد تذوق الزقوم وحسب، وإنما يأكلون منها إجبارا حتى تمتلئ بطونهم، بل وزيادة في التنكيل بهم يشربون عليها من الحميم، قال سبحانه: **﴿وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾** [محمد/15]، ولا يشربون رشفة أو رشفتين بل يشربونه مثل البهائم تجرعا لا يكادون يسيغونه، قال سبحانه: **﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**

---

[1]) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد في مسنده ج1ص 338 رقم 3136 وقال شعيب إسناده صحيح على شرط الشيخين ورواه ابن حبان في صحيحه ج 16 ص 511 رقم 7470 والحاكم في مستدركه ج2 ص 489 رقم 3684 وقال الذهبي في التلخيص على شرط البخاري ومسلم، وصححه الألباني انظر الجامع الصغير ج 1 ص 939 رقم 9381

[2]) رواه الطبراني بأكثر من عشر روايات في المعجم الكبير والأوسط والصغير بلفظ (لحم) بدلا من (جسد)، ورواه الحاكم في مستدركه ج4 ص 141 رقم 7162 وقال الذهبي في التلخيص صحيح، وصححه الألباني انظر الجامع الصغير ج1 ص 865 رقم 8648

*** مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ** [إبراهيم/15-17]، فهل وجد هؤلاء الضالون المكذبون ما يرجون من الترف والنعيم؟ وهل بقيت لهم الدنيا التي اطمأنوا بها؟ يجيب المولى سبحانه (هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ).

قال تعالى: **نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ** [الواقعة: 57 - 62].

تغلق السورة باب السخرية والتهكم من هؤلاء المكذبين، لتفتح بابًا آخر للإقناع العقلي بعد الإرهاب التصويري الذي مضى ذكره، فيتغير الأسلوب القرآني مخاطبًا الحس والعقل معًا، ومستخدما أسلوب التوبيخ تارة وأسلوب التدليل والإقناع تارة أخرى، بذلك يقيم القرآن الحجة عليهم بعدما كسر آنفة الجبارين، وقطع سبل التشكيك على المتنطعين، حيث لا يبقى إلا التسليم بيوم الدين، فتفتح الآيات سيلًا من الأدلة العقلية لإقناع المكذبين بيوم الدين مبتدئة

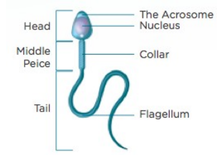
قوله: (**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (58) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**)، ذكرهم بخلق أنفسهم، هل غير الله تعالى خلقها؟ يقول الشنقيطي "لولا" هنا "حرف تحضيض"، ومعناه الطلب بحث وشدة، فالآية تدل على شدة حث الله للكفار وحضه لهم على التصديق بالبعث لظهور برهانه القاطع الذي هو خلقه لهم أولًا)[1]، **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** [النحل/17]، فإذا لم يصادف ذلك إجابة

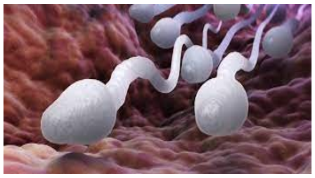
[1]) أضواء البيان ج7 ص 527

منهم، فثمة سؤال ثاني، من الذي خلق المني الذي ينزل من الذكر أثناء التقائه مع الأنثى ليتكون الجنين؟









(الحد الأدنى لعدد الحيوانات المنوية هو 15 مليون لكل مليلتر و 40 مليون نطاف في إجمالي عينة السائل المنوي، ولكي تتحقق فرصة الحمل لابد وأن يزيد عدد الحيوانات المنوية ضمن المعدل الطبيعي عن 15 مليون حيوان منوي)[1]

فإذا علمن ا ذلك هنا تقف ألسنتهم عاجزة عن الرد، فيبادرهم المولى سبحانه بسؤال أخر قبل أن يطول خرسهم، ﴿**أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى**﴾ [النجم/45-47].

قوله (**نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ**) لما أعجزهم القرآن عن الرد - لما في قلوبهم من إصرار على الحنث العظيم – وقد أجابهم الله بأسلوب التهكم والسخرية (أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ) أي أنه هو الذي أوجدهم من العدم، أتبع ذلك بإجابة تقريرية وهي أنه هو الذي قدر للموت أجلا، فجعل للناس أعمارا، فإذا انقضت أعمارهم باغتهم الموت، فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فلم ينكر أحدهم هذه الحقيقة، ولا يستطيع أن ينكر، فليس أحد من الخلق عاش أبدا.

قوله: (**وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ**): أتبع ذلك بنتيجة على هاتين المقدمتين -أي الإيجاد من العدم والفناء بعد الحياة - وهي أنه لا أحد قادر على أن يقبض

---

[1]) معلومة نشرتها منظمة الصحة العالمية -:اقرا المزيد من خلال موقع الطبي https://altibbi.com/

روحا لم يأتي أجلها، ولا أن يؤخر الموت وقد حان أجله، فليس الله بعاجز على أن يحدد للموت أجلا، ولا أحد قادر على أن يغلب الله في ذلك، بل هو القادر على أن يميت هذا وينشئ من بعده أناس آخرين، كما في قوله: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**﴾ [الأنعام:133]، أي نحن قادرون على أن نعدمكم وننشىء أمثالكم، وفي ذلك دلالة على أن الله حين يمقت المشركين به ينشئ بعدهم قوم يحبهم ويحبونه، لولا أنهم يستجيبون ويؤمنون، كما في الحديث أهل الفترة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**)[1].

قوله: (**وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ**) قال مجاهد أي (**وفي أي خلق شاء**)[2]، أي (**على غير مثال سبق**) [3]، بمعنى (**نحن قادرون على تغيير أوصافكم مما لا يحيط به فكركم**)[4]، قال الجزائري أي (ونوجدكم في صور لا تعلمونها وهذا تهديد لهم بمسخهم وتحويلهم إلى أبشع حيوان وأقبحه)[5]، أي (قردة وخنازير)[6]، قال الحسنُ أي (نجعلكم قردةً وخنازيرَ)[7] وقيل (**المَعْنى وننشئكم في البعثِ على غيرِ صوركم في الدُّنيا فيمن هذا شأنُه كيف يعجزُ عن إعادتِكم**)[8]، في ذلك شاهد وهو مسخ أبا نبي الله إبراهيم ففي الحديث عَنْ النَّبِيِّ صلى

---

[1]) رواه مسلم ج 14 ص 24 رقم 5109
[2]) ذكره مجاهد ورواه عنه البخاري ج 4 ص 1849
[3]) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث صـ 56 - المؤلف: أحمد بن الحسين البيهقي - الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت - الطبعة الأولى، 1401- تحقيق: أحمد عصام الكاتب
[4]) البحر المحيط ج10 ص 221
[5]) البيضاوي ج4 ص 196، أيسر التفاسير للجزائري ج4 ص 196
[6]) تذكرة الأريب تفسير الغريب ج1 ص 202
[7]) فتح القدير للشوكاني ج7 ص 133 القرطبي ج17 ص 217، وحكاه السيوطي عن ابن عباس في الدر المنثور ج 9 ص 407 من رواية اسحق بن مردويه
[8]) تفسير أبي السعود ج6 ص 265

الله عليه وسلم قَالَ (يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ)[1]، بل إن المسخ لحاصل في الدنيا لقوم معينين، فعن عمران بن حصين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف فقال رجل من المسلمين يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال إذا ظهرت القينات-المغنيات[2] - والمعازف - آلات اللهو[3] - وشربت الخمور**)[4]، فالجمع بين المغنيات والآلات الموسيقية وشرب الخمر كناية عن أماكن الزنا والفاحشة، وهذا يستوجب غضب الله تعالى، فيمسخهم قردة وخنازير كما فعل ببني إسرائيل، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ [البقرة/65].

قوله: (**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذكَّرُونَ**) أي خلق آدم عليه السلام، خلقه الله بلا أب ولا أم، بل إن كل إنسان خلق من عدم، كما أشار لذلك قوله: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [الإنسان/2]، وهكذا يقيم الله الحجة بأنه قادر على أن يعيد الخلق مرة أخرى كما بدأه أول مرة، فعلام الإنكار، ﴿**قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ [يونس/34]، قال الشنقيطي (ذكر تعالى أن من أنكر البعث فقد نسي الإيجاد الأول، كما في قوله: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ**﴾ [يس/78]، وقوله ﴿**وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا، أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا**﴾ [مريم/67،68].

---

[1]) رواه البخاري ج11 ص 138 رقم 3101
[2]) النهاية في غريب الأثر ج4 ص 228
[3]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 446
[4]) رواه الترمذي ج4 ص 495 رقم 2212 تعليق أحمد شاكر والألباني وصححه، دار إحياء التراث العربي – بيروت

قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**﴾ [الواقعة: 63 - 67].

يفتح الله لنا سبيلا آخر للتفكر في خلقه ويسرد أدلته التي تخاطب العقول لعلها تفتح القلوب الموصدة فيستقبل دماء الإيمان المتدفقة فينشرح بها الصدر، ويستعيد الجسد الحياة بعد الممات، (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (الأنعام/122).

قوله: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾: إحالة النظر إلى ما يحرثه الإنسان من الزرع ليصطحب الفكرة والعبرة، فبالنظر إلى ما يصنع الفلاح إنه يحرث الأرض ويبذر فيها البذر، أملا أن تنشق هذه البذرة فتخرج منها نبتة صغيرة، لعلها تزهو وتكبر فتصير زرعا، فكيف يخرج الزرع من تلك البذرة، وكيف ينشق منها؟ فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يقولن أحدكم: زرعت ولكن ليقل: حرثت" قال أبو هريرة: ألم تسمع الى قول الله تبارك وتعالى: (**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ**)، (**أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**)[1]؛ أي أنتم حرثتم ولكن الله هو الذي زرع [2]، أي هو الذي أنبت الزرع، ولولا قدرة الله لما طلع الزرع، قال ابن حجر (فسلب عنهم هذه الأفعال وأثبتها لنفسه ليدل بذلك على أن المؤثر فيها حتى صارت موجودة بعد العدم هو خلقه وان الذي يقع

---

[1]) رواه ابن حبان في صحيحه ج13 ص 30 وابن جرير الطبري في التفسير 27/114 وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 300 رقم 2801

[2]) الشرح المختصر على بلوغ المرام ج2 ص 112

من الناس انما هو مباشرة تلك الأفعال بقدرة حادثة أحدثها على ما أراد فهي من الله تعالى خلق بمعنى الاختراع بقدرته القديمة ومن العباد كسب على معنى تعلق قدرة حادثة بمباشرتهم التي هي كسبهم ووقوع هذه الأفعال علي وجوده بخلاف فعل مكتسبها أحيانا من أعظم الدلالة على موقع أوقعها على ما أراد)[1].

وليس التأمل في كيفية خروج الزرع نهاية الفكر، ولكن كيفية الاستفادة بهذا الزرع، لاسيما حالما يحترق بعدما زها وكبر، فصار حطاما، لا شك أنها حسرة تجعل صاحبها يندهش اندهاش المتعجب حين يرى الزرع الذي أنفق عليه المال والمجهود وبذل من الرعاية له ما بذل أضحى حطاما، فكل ما بذل من مال ومجهود لأجل هذا الزرع لن يؤتي ثماره ما لم يكن قد قُدِّر لك رزقه.

قوله: (**لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا**) سلب النعمة بعد إتيانها، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**﴾ [القلم/17-20].

---

[1]) فتح الباري لابن حجر ج13 ص 532

قوله: (**فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ**) أَي تتَعجَّبُونَ مما نَزَلَ بكم في زَرْعِكم وقوله (**فاكِهين بما آتاهُم رَبُّهم**) أَي ناعمين مُعْجبينَ بما هم فيه)[1]، و(**المعنى يعجبون لهلاكه بعد خضرته**)[2].

قوله: (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) يفيد الحسرة، كما في قوله: ﴿**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾ [الكهف/42].

قوله: ﴿**بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**﴾: هذا القول منسوب لمن وعي ما حدث له، معللًا سبب ما ألم به من مصيبة هلاك الزرع بأن ذلك عقوبة من الله، فقد حُرم الرزق عقوبة له - وأيا كان السبب - ليسترجع ويتذكر أن الله هو الرازق، فلا ينس فضل الله عليه، ويشكر نعمه ويتصدق، ونظير ذلك في سورة القلم (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ) (26) أي ضللنا طريقنا إلى جنتنا وحديقتنا، فليست هي تلك التي أصابها الحرق وأضحت حطاما، وكانت بالأمس زاهية بالزرع، قال تعالى: ﴿**بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**﴾؛ أي إستشعر الذنب وعلم أن ذلك عقوبة له، ﴿**قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ**﴾ [القلم: 28 - 32].

---

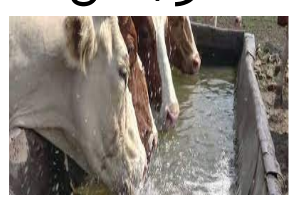
[1]) - انظر لسان العرب ج13ص523
الفَكِهُ الذي يُحَدِّث أَصحابَه ويُضْحِكُهم وفَكِهَ مِنْ كـذا وكـذا وتفَكَّه عَجِبَ تقـول تفَكَّهْنـا من كذا وكذا أَي تعَجَّبْنا ومنه قوله عز وجل فظَلْتُمْ تَفَكَّهُون

[2]) تفسير ابن أبي زمنين ج2 ص 221

قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ**﴾ [الواقعة: 68 - 70].

كما ذكرنا القرآن بحقيقة الإيجاد من عدم والموت بعد الحياة، وكذلك حقيقة الزرع بعد الحرث وهلاكه قبل حصاده، فإذا ما أضيف إلى هاتين الحقيقتين حقيقة الماء الذي نشربه لنعلم أن الله تعالى هو الذي أنزله من السماء ليكون عذبا فراتا يجري كما نتذوقه من الأنهار، بينما ماء البحار لا يستسيغه الإنسان ولا يستقيم حاله به إلا بعد أن يمر بعدة مراحل من البخر والتصاعد والتكثيف ثم التقطير لينزل ماءا عزبا فراتا من جديد، فنعمه سبحانه كثيرة ولا يستطيع أن الإنسان يقدرها أو أن يحصيها وماذا يحصل لو لم ينزل هكذا وظل مالحا أو مما تصنعه أيدينا وبإفسادنا نزل مطرا كبريتيا أو حمضيا يضر بالبيئة؟.

قوله (**أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ**) (68) هذه النعمة التي يوفرها الله تعالى لعباده دون تعب أو نصب، ولم يجعله سلعة يباع ويشترى، وإنما جعله من الوفرة بحيث يشرب الماء كل من يحتاج دون أن يدفع مالا، فحاجة الإنسان للماء التي ينبغي تناولها يوميًا تقدر بـ: 15.5 تقريبًا (3.7 لترًا) من السوائل يوميًا للرجال 11.5 كوبًا تقريبًا (2.7 لترًا) من السوائل يوميًا للنساء[1].

تمثل المياه ما يتراوح بين نحو 60 و70 في المئة من جسم الإنسان، ويتعين علينا أن نعوض هذه المياه التي نفقدها بسبب التبول أو العرق... إلخ باستمرار بالشرب أو بالأكل، وتبدأ المرحلة الأولى من الجفاف بالعطش، الذي نشعر به عندما نفقد اثنين في المئة من وزن الجسم، ويقول ديليب لوبو، أستاذ جراحة المعدة والأمعاء: "عندما نشعر بالعطش، يتشبث الجسم بجميع المياه

[1]) هذا ما حددته الأكاديميات الوطنية للعلوم والهندسة والطب في الولايات المتحدة

المتبقية. فترسل الكلى كميات أقل من المياه إلى المثانة، ومن ثم يصير لون البول داكنًا، وعندما يقل العرق ترتفع درجة حرارة الجسم. ويصبح الدم أكثر كثافة ولزوجة. وللحفاظ على مستويات الأكسجين في الدم، يتسارع نبض القلب"... وقد يصيبنا الجفاف المعتدل بالتعب والإجهاد، وتتراجع قدرتنا على الأداء البدني. وإذا فقدنا المزيد من المياه، تقل قدرتنا على تبريد الجسم بالتعرق، ومن ثم ترتفع درجة حرارة الجسم ارتفاعًا ملحوظًا، فإذا أخرج الجسم كميات تفوق ما يستهلكه من المياه، يصبح الدم أكثر كثافة وتركيزا، ومن ثم سيجد الجهاز القلبي الوعائي صعوبة في الحفاظ على ضغط الدم في المعدل المناسب... وفي المرحلة الثالثة من الجفاف، إذا فقدنا سبعة في المئة من وزن الجسم، قد تتضرر أعضاء الجسم. ويقول لوبو: "يجد الجسم مشقة في الحفاظ على ضغط الدم. ولكي تبقى على قيد الحياة، يتدفق الدم ببطء إلى أعضاء الجسم الأقل أهمية، مثل الكلى والأمعاء، ما يؤدي إلى إلحاق أضرار بها. فإذا توقفت الكلى عن ترشيح الدم، ستتراكم النفايات الخلوية، وفي هذه الحالة، أنت تموت من أجل شربة ماء بالمعنى الحرفي"[1].

قوله (**أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ**): سُمي السحاب مزنًا؛ لأنه ممتلئ بالماء، قدروا وزنها بـ (500000) كيلو جرام إلى مليون طن، فإنزال هذه الكمية الهائلة من السماء إلى الأرض على هيئة قطرات ماء بقدر معلوم يحتاج لقدرة ليست إلا لله تعالى سبحانه.





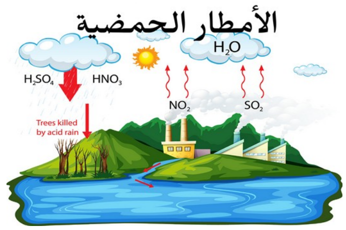




[1]) https://www.bbc.com/arabic/vert-fut-54650564

قوله (**لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ**): كان الحسن البصري يقول حينما يشرب الماء (الحمد لله الذي سقانا عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا)[1]، قال العلماء (عند شرب الماء المالح يتناول الجسم كمية من الملح تزيد عن حاجته ويستعصي عليه التخلص منها عن طريق البول، كما تعجز الكلى عن ذلك بسرعة، حيث يحتاج الإنسان مقابل كل كوب من الماء المالح إلى شرب نفس الكمية من الماء على الأقل حتى تتمكن الكليتين من التخلص من الملح الزائد [2]، وبزيادة كمية الملح في الجسم تزيد كمية الملح في الدم، وبالتالي يرتفع ضغط الدم، ويزيد العبء على القلب، حيث يؤدي الإفراط في تناول الصوديوم إلى زيادة خطر الإصابة بالسكتة الدماغية، وفشل القلب) [3]







قال الإمام البقاعي: (أي ملحًا مرًّا محرقًا كأنه في الأحشاء لهيب النار المؤجج، فلا يبرد عطشًا ولا ينبت نبتًا ينتفع به)[4].

قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ [الواقعة: 71 - 74].

---

[1]) شعب الإيمان للبيهقي ج4 ص 115
وقال ابن أبي الدنيا عقبه: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، ثنا جَرِيرٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شُبْرُمَةَ: " أَنَّ الْحَسَنَ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ إِذَا شَرِبَ الْمَاءَ ".
وهذا إسناد صحيح عن الحسن، وهو البصري

[2]) https://arabic.rt.com/funny/1367948-شرب-الماء-المالح

[3]) مقالات-طبية/فيتامينات-ومعادن/علامات-زيادة-الملح-في-الجسم 6647https://altibbi.com/

[4]) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

قوله: (**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ**): حقيقة رابعة يشير إليها القرآن ليكتمل مربع الاستدلال العقلي لمجابهة المشككين باليوم الآخر، لإثبات أن يوم الدين واقع، فهذه النار - سبحان الله – مخلوق عجيب، يستخرجها الإنسان من العدم، بل إنه ليوقدها من الشجر المعروف عند العرب، قال الإمام البقاعي (أي تستخرجون من الزند فتوقدون به سواء كان الزند يابسًا أو أخضر بعد أن كانت خفية فيه لا يظن من لم يجرب ذلك أن فيه نارًا أصلًا، فكان ذلك مثل التورية التي يظهر فيها شيء ويراد غيره، ثم صار بعد ذلك الخفاء إلى ظهور عظيم وسلطة متزايدة وعظمة ظاهرة تحرق كل ما لا بسها حتى ما خرجت منه، والعرب أعرف الناس بأمر الزند، وذلك أنهم يقطعون غصنًا من شجر المرخ وآخر من العفار، ويحكون أحدهما على الآخر فتتقدح منها النار على أن النار في كل شجر، وإنما خص المرخ والعفار لسهولة القدح منهما، وقد قالوا: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار) [1].






قوله (**أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ**) استفهام استنكاري عن أمر إنشاء هذه الشجرة، أألله هو الذي أنشأها وأوعد فيها القدرة على أن تُستخرج منها النار، أم أن ثمة أحد يستطيع أن ينسب لنفسه الفضل في استخراج هذه الطاقة المشتعلة؟ لا شك أنه هو الله تعالى سبحانه، ولا دخل للإنسان في ذلك مطلقا.

وَإِذَا رَأَيْتَ النَّارَ شَبَّ لَهِيبُهَا * * * فَاسْأَلْ لَهِيبَ النَّارِ مَنْ أَوْرَاكَ؟!

قوله (**نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً**) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (**اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي**

---

[1]) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور الآية 71 الواقعة ج8 ص 341

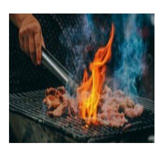
بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ)[1].

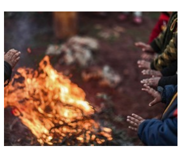




قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (**نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**)[2]

قوله (**وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ**[3]) قال الشوكاني أي (**منفعة للذين ينزلون بالقواء، وهي الأرض القفر كالمسافرين، وأهل البوادي النازلين في الأراضي المقفرة**)[4]، فقد خلق الله هذه النار لنستمتع بدفئها وطاقتها الهائلة التي أودعها الله فيها فيطبخ بها الطعام ويصهر بها الحديد، وتضاء بها السرج، إنها حقا متاعا لكل محتاج إليها، وبخاصة حين يعيش الإنسان حياة تعتمد على الترحال والسفر والتنقل والنزول بالأراضي القفر حيث يعتمد على الصيد والنار في معاشه وصناعة الأسلحة.


---

[1]) رواه البخاري ج11 ص 39 رقم 3020

[2]) رواه البخاري ج11 ص 44 رقم 3025

[3]) القِيُّ القَفْر من الأَرض أبدلوا الواو ياء طلباً للخفة وكسروا القاف لمجاورتها الياء والقَواءُ كالقِيّ همزته منقلبة عن واو وأَرض قَواء وقَوايةٌ الأَخيرة نادرة قَفْرة لا أَحد فيها، قال الفراء ومتاعاً للمُقْوِين يقول منفعةً للمُسافرين إِذا نزلوا بالأَرض القِيّ وهي القفر – لسان العرب ج 15 ص 206

[4]) فتح القدير ج7 ص 135

قوله (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) التسبيح تنزيه لله تعالى عن أن ينسب له أي نقص، وهو نتيجة للتفكر في آلائه وقدرته، وكيف خلق الله تعالى نفسه وروحه التي أودعها في جسده، وزرعه الذي منه يأكل، والماء الذي يشرب منه، والنار التي يستمتع بها، سبحانه يستشهد الله بهذه الأربع تلك المقومات الأساسية لعيش الإنسان (**التناسل والمأكل والمشرب والطاقة**)، وبدونها يفقد الإنسان ما يجعله قادرا على العيش والاستمرار في هذا الكون حتى الموت، (وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد من عرض هذه الحقائق والأسرار، الناطقة بدلائل الإيمان، الميسرة للقلوب والأذهان، يلتفت إلى الحقيقة التي تنتهي إليها هذه الحقائق، حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته، وهي حقيقة تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان، فيهيب بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يُحْيِّي هذه الحقيقة ويؤدي حقها ويلمس القلوب بها في حينها.

قال تعالى: **فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (78) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (80) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ** [الواقعة: 75 - 82].

(**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**[1]) عن مجاهد (**بِمُحْكَمِ الْقُرْآنِ وَيُقَالُ بِمَسْقِطِ النُّجُومِ إِذَا سَقَطْنَ وَمَوَاقِعُ وَمَوْقِعٌ وَاحِدٌ**)[2]، وقيل المراد به نجوم القرآن وهي أوقات نزوله)[3]، قال النووي (**قال الأكثرون المراد نجوم السماء ومواقعها مغاربها وقيل مطالعها وقيل انكدارها وقيل انتشارها يوم القيامة وقيل النجوم نجوم القرآن وهى أوقات**

---

[1]) النَّجْمُ من النباتِ كلُّ ما نبتَ على وجه الأَرض ونَجَمَ على غيرِ ساقٍ وتسطَّح فلم يَنْهَض – راجع لسان العرب ج 12 ص 571

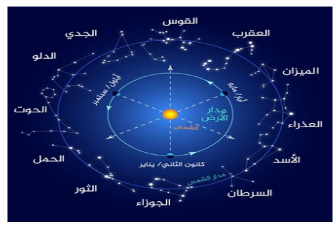
وجاء أيضا: النَّجْمُ: الكَوْكَبُ ج: أنْجُمٌ وأنْجامٌ ونُجومٌ ونُجُمٌ و من النَّباتِ: ما نَجَمَ على غيرِ ساقٍ - انظر القاموس المحيط ج1 ص 1499 -

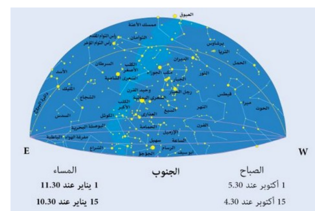
[2]) البخاري ج4 ص 1849

[3]) شرح السيوطي على مسلم ج1 ص 91

نزوله)[1]، قال الشعراوي (من معاني النجم القسط المنزل من كتاب الله نجوما، إذن يوجد علاقة بينهما، قال تعالى: **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ**) (15)، ونجم القرآن يأتي حسب المناسبة)[2]، وقال ابن عاشور (**مواقع النجوم مواضع غروبها**) فيكون في معنى قوله تعالى (والنجم إذا هوى) [3]، قال الألوسي (**فسر غير واحد مواقع النجوم بمنازل القرآن ونجومه التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة**) [4].







ثبت علميا أن ما نراه في السماء من نجوم ليس هو النجم ذاته، بل ضوءه بعد إنفجاره قبل آلاف السنين، ما يدل على المسافة الهائلة بين النجوم والكواكب، يقول العلماء قنطور الأقرب أو بروكسيما سنتوري (بالإنجليزية: **Proxima Centauri**) هو نجم قزم أحمر يبعد عن الأرض حوالي 4.2 سنة ضوئية (40·1012 كيلومتر) وهو بذلك ثاني أقرب نجم من الأرض بعد الشمس، كما التقط تلسكوب جيمس ويب الفضائي التابع لناسا صورة لأبعد نجم معروف في الكون، اسمه **Earendel**، على بعد حوالي 28 مليار سنة ضوئية من الأرض وفقا لما نقلته **RT**. وهذا بعد أكثر من 10 مليارات سنة ضوئية من أبعد نجم رآه علماء الفلك.

ما تقدم - لاسيما قول مجاهد - يشير إلى أن ثمة علاقة بين مواقع النجوم وبين القرآن العظيم، وعند التحقيق نجد أن القرآن الكريم فلم يكن كتابا عرضيا نزل إلينا الأعراض والأحوال وحسب، إذ لو كان عرضيا لما كان منهجيا منتظما، كما أن القرآن ليس

---

[1]) شرح النووي على مسلم ج2 ص 62
[2]) https://www.facebook.com/watch/?v=506339104588775
[3]) راجع التحرير والتنوير لابن عاشور ج 1 ص 4282 -.
[4]) روح المعاني للألوسي ج 23 ص 109

مجرد منهجا نظريا لا يصادف واقعا حياتيا، إذ لو كان كذلك لانفصل عن واقع الناس ومعاشهم، ولما نزل منجما، بل واضطر الصحابة أن يبتدعوا غيره منهجا يصلح للتطبيق بما يتناسب مع واقعهم وحياتهم، بل إن القرآن هو كتاب الله المنهجي العقائدي العملي التطبيقي الذي أنزله ليقيم حياة البشر بما فيه صالح لدينهم ودنياهم، ولذلك أقسم المولى سبحانه وتعالى بكيفية تنزيله للقرآن الكريم، إذ نزل هذا الكتاب المنهجي بطريقة مصادفة الأحداث والوقائع، وفق قدر الله ومشيئته في ترتيب الأحداث على مراتب نزول آيات القرآن وسوره، وبذلك كان تنزيل القرآن ذاته معجز.

قوله: (**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**)[1] أي هذا القسم له دلالة عظيمة، وبما أننا لا نعلم مواقع النجوم وإنما نرى أثر ضوءها بعد إنفجارها من آلاف وملايين السنين، وكذلك لم نرى نزول الوحي في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ما نراه آيات الله تعالى التي تتلى في القرآن، كآثار النبوة التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم منذ ألف وخمسمائة سنة تقريبا، وقد نزل القرآن مفرقا وفقا للأحداث ووقائع الناس، وكل ذلك بقدر الله تعالى وقدرته، فكما أن لله تعالى الحكمة بالغة في خلق النجوم وتفريقها على مواقع معينة، وظهور ضوءها للناس بعد ملايين السنين، فكذلك نزول آيات القرآن منجمة بحسب الوقائع والأحداث، لترتبط حياة البشر بهذا القرآن وإن نزل من آلاف السنين، ولكن نوره لا يزال يضئ حياة البشر إلى الآن.

قال ابن القيم: (وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه: (**أحدها**) أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين

---

[1] https://www.youtube.com/watch?app=desktop&v=ydWARjFd7Ss (

مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آيات المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية مع ما فيها مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول)[1].

قوله: (**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**)، إشارة إلى فالقرآن الذي أنزله الله تعالى في اللوح المحفوظ جملة واحدة، ثم نزل علينا مفرقا بحسب الوقائع التي عاشها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليدخل على حياتهم هذا المنهج العملي التطبيقي مسيسا لا إقحاما، فالمنهج القرآن يدخل القلوب برفق وسلاسة، فلا يشعر المكلف بشيء من التكليف أو التعسف في تطبيقه، ولأنه كذلك، كان حقا على المكلفين أن يأخذوه برفق وسلاسة لا بشدة ومبالغة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (**إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة**) [2].

ومن جهة أخرى فقد حفظ الله تعالى هذا الكتاب إلى يومنا هذا نور يضئ حياة الناس، كما حفظ أضواء النجوم بعد آلاف السنين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله تعالى: (إنا أنزلناه في ليلة القدر) قال: أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا كان بموقع النجوم فكان الله ينزله على رسوله الله صلى الله عليه وسلم بعضه في أثر بعض؛ قال عز وجل: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾ [الفرقان: 32] [3]، وهذا الفهم[4] أكده ابن عباس فقال (نزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرق في السنين

---

[1]) التبيان في أقسام القرآن ج1 ص 136

[2]) رواه البخاري ج 1 ص 23 رقم 39

[3]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 578 رقم 3958 وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه - تعليق الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم

[4])انظر الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي - باب نزوله مفرقا (منجما)

قال: وتلا هذه الآية: ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** ﴾ [الواقعة: 75، 76] [1].

قوله: (**لَّا يَمَسُّهُ** [2] **إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**): دليل على حفظ القرآن من عمل الشياطين، وإشارة إلى وجوب تخلية القلب من الآثام قبل التحلية بالصفات الحميدة، لذا كان واجبا على جميع المكلفين أن يتطهروا مما يفسد قلوبهم حتى يتمكنوا من تطبيق المنهج القرآني في حياتهم، ففساد الاعتقاد - وفساد التصور كذلك - يحولان دون أن يصل هذا الكتاب للقلوب، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا**﴾ [الإسراء/41]، وذات الشيء بالنسبة للانحراف الأخلاقي والتعاظم النفسي والشذوذ الاجتماعي، كل هذه الأمور لابد وأن يتطهر المرء منها حتى تصل إليه رسالة الإسلام صافية، إذ يصعب أن يصل هذا القرآن لأناس ألفوا الخمر

---

[1]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 578 رقم 3959 وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه - تعليق الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم

[2]) ذكر المس في القرآن في أكثر من موضع، ولكل موضع منها دلالته الخاصة به، ففي قوله تعالى (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ..{آل عمران/47}، دل اللفظ على معنى الجماع ومقدماته وكنى بالمسيس لإيفاد ذلك، وفي قوله تعالى (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ {الحجر/54} دل اللفظ على معنى التقدم في السن و الهرم وكنى بالمسيس لإفادة أن التقدم في السن يأتي بخفة دون أن يشعر به الإنسان إلا كالمسيس، وفي قوله تعالى (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {الأنبياء/83} كنى بهذا اللفظ لإيفاد معنى إيصال الضر، حيث لم ينل الضر من صبره فلا يزال صابرا عليه وكأن ما أصابه من الضر ليس إلا مسيس منه بالرغم من شدة مرضه، وفي قوله تعالى (وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ {الأنعام/17} كنى باللفظ لإيفاد معنيين لشيئين متضادين، وهما الضر و الخير فكلاهما يصلان للعبد مسا، وفي ذلك إيصال لمعنى وصول الضر والخير للعبد عن طريق الأسباب رغم أن المسبب هو الله حتى يبتلي الله تعالى العبد، فإن كان مؤمنا أرجع هذه الأسباب لمسببها وهو الله تعالى،وإن لم يكن مؤمنا تمسك بالأسباب لدفع الضر ونسي المسبب وهو الله وتمسك بالأسباب ليستمر في وصول الخير إليه ونسي من خلق الأسباب التي وصل بها الخير إليه

ومن جماع ما تقدم يستفاد أن لفظ (مس) (يمس) يدل على إيصال شيء لشيء بخفة و لطف دون مشقة أو تعب، وهو المقصود من الآية التي نحن بصددها.

والزنا والمخدرات والسرقات والربا، كيف يتركون تلك المفاسد مستمعين منصتين لكتاب يتحدث عن الآخرة والجنة والنار والنعيم والحساب على الترف في الدنيا والجزاء، وكل هذه الأمور غيبية غير مشاهدة، بينما ما يعيشونه من مفاسد أمور حسية ولذات شهوانية، وذلك يقول الله تعالى: **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ، لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** [يس/69-70]، فلو لم يكن القلب حيا لما استطاع أن يتعظ بوعظ القرآن ولن يصل إليه ما في القرآن من نذير متى ظل هكذا ميتًا.

روي ابن اسحاق أن عمر قال لأخته (أرأيت ما كنت تدرسين)؟ أعطيك موثقا من الله لا أمحوها حتى أردها إليك ولا أرتبك فيها فلما رأت ذلك أخته ورأت حرصه على الكتاب رجت أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم له فقالت: إنك نجس (ولا يمسه إلا المطهرون) ولست آمنك على ذلك فاغتسل غسلك من الجنابة – أرادت أن يفيق من غضبه- وأعطني موثقا امنن إليه نفسي ففعل عمر فدفعت إليه الصحيفة وكان عمر يقرأ الكتاب فقرأ (طه 00) حتى إذا بلغ (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) إلى قوله (فتردى) وقرأ (إذا الشمس كورت) حتى بلغ (علمت نفس ما أحضرت) فأسلم)[1]، تلك هي معجزة القرآن أن يحيي الله به قلوبا بعد موتها، قال تعالى: **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** [الأنعام/122]؛ إذًا كتاب الله تعالى الذي أنزله على عباده فيه خاصية يتفرد بها عن غيره، تلك أنه حينما يمس القلوب التي كانت الميتة، فإنها تحيا بإذن الله تعالى، لكن ولكي يمس هذا الكتاب القلوب لابد إما أن يتحرك المكلف نفسه إلي هذا الكتاب من خلاله بحثه عن الحقيقة والهدى والطريق المستقيم، وخير مثال لذلك هو سلمان الفارسي رضي الله عنه، أو أن يتحرك هذا الكتاب بجهد الدعاة إلى الله تعالى

[1]) سيرة ابن اسحاق ج1 ص 160

ليوصلوا آياته لهم، فإن كان عن طريق حركة المكلف نفسه وبحثه عن الحقيقة فإن هذه الحركة لا تأتي إلا من رجل رشيد يبغي الخير ويسترشد به، أناس تطهروا من آثام قومهم ليصلوا إلى كتاب الله تعالى فيهتدوا به، وإن كانت الحركة من الكتاب نفسه عن طريق الجهد الدعوى فإنها تكون حركة إعجازية حين ترى القرآن يصدع في بلاد الكفر فيسلموا له حينما يستمعوه فتحيا قلوبهم بعد أن كانت ميتة.

قوله: (**أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**): الخطاب للذين يصرون على الحنث العظيم، الذين يطعنون في القرآن الكريم، ولا يؤمنون بالساعة، لكنهم يتصنعون الإيمان، مداهنة منهم للذين آمنوا ونافقوا معهم، وفي ذات الوقت يدهنون مع الذين كفروا فيؤمنون بما يؤمنون به من أمور التنجيم والتكذيب بالقضاء والقدر، أي أنهم يدهنون على الجانبين، تلك هي طريقتهم في الطعن في الدين والتكذيب بآياته والخروج عن منهجه، قال ابن جزي (وأصله من المداهنة وهي لين الجانب والموافقة بالظاهر لا بالباطن)[1]، أي أن طريقتهم في المهادنة هي ادعاء الإيمان ثم التكذيب بالقضاء والقدر، فيصير في الأمة طائفة تدعي الإيمان بالله أو بالقرآن وهم كافرون بالقضاء والقدر، بل وينسبون الفضل في الرزق وأحداث الكون إلى الطبيعة باعتبارها تسير بديناميكية معينة، فيفرغون عقيدة الإسلام من مضمونها، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن)، وذكر منها (**الاستسقاء بالنجوم**)[2]، أي (**الاعتقاد بأن نزول المطر بظهور نجم كذا اعتقادا منهم أن للنجم تأثير، وهذا كفر بالله وقضائه وقدره**)[3]، والصحيح أن ينسب هذا الفضل لله، ولا ينسبه للأسباب،ولذلك قال ابن عباس (مطر الناس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم) فقال النبي صلى الله عليه وسلم (**أصبح من الناس شاكر**

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 2305
[2]) رواه مسلم ج2 ص 644 رقم 934
[3]) فيض القدير ج1 ص 592 مع بعض التصرف

ومنهم كافر) قالوا هذه رحمة الله، وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا – أي رياح شديدة[1] - قال: فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى بلغ... (**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**) [الواقعة / آية 75 – 82][2]؛ أي أن هذه الآية ربطت بين إيمان الناس بالقرآن وإيمانهم بالقضاء والقدر ليكون واقع الناس وحياتهم مرتبط بهذا الإيمان، ولذلك قيل (الرزق في هذه الآية بمعنى الشكر كأنه قال وتجعلون شكركم لله على ما رزقكم من المال أن تنسبوا ذلك الرزق إلى الكوكب)[3].

رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أخاف على أمتى من بعدى ثلاثًا حيفَ الأئمة وإيمانًا بالنجوم وتكذيبًا بالقدر)[4]، فالإيمان بهذا الكتاب هو ذات الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره، وكلاهما من أركان الإيمان بالله، قال المناوي في قوله (**وإيمانا بالنجوم**): أي (تصديقا باعتقاد أن لها تأثيرا في العالم، ونكره ليفيد الشيوع فيدل على التحذير من التصديق بأي شيء كان من ذلك جزئيا أو كليا مما كان من أحد فسمى علم النجوم وهو علم التأثير لا التسيير فإنه غير ضار (**وتكذيبا بالقدر**) أي إسناد أفعال العباد إلى قدرهم قال الغزالي العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأسباب ككونه مضرا بصاحبه أو غيره غالبا كعلم النجوم فإنه غير مذموم لذاته إذ هو قسمان حسابي وقد نطق القرآن العزيز بأن علم تسيير الكواكب محبوب، كما في قوله (**الشمس والقمر بحسبان**) وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وذلك يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما يحدث من المرض، وهو معرفة مجاري سنة الله تعالى في خلقه، لكن ذمه الشرع لإضراره بأكثر الخلق حسما للباب، فإنه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عند قران الكواكب أو تناظرها أو صعودها أو

---

[1]) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج9 ص 431
[2]) رواه مسلم ج 1 ص 84 رقم 73
[3]) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ج16 ص 291
[4]) أخرجه ابن عبد الابر في جامع بيان العلم 48/2، وابن عساكر401/58، وذكره الرافعي 390/2 انظر جامع الأحاديث للسيوطي ج2 ص 21، وصححه الألباني ج1 ص 22 رقم 214

هبوطها أو غير ذلك وقع في نفوسهم أنها هي المؤثرة وأنها آلهة لكونها جواهر شريفة سماوية يعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتا إليها ويرى الخير والشر منها وينمحي ذكر الله من قلبه، إذ الضعيف يقصر نظره على الوسائط والعالم الراسخ مطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وأن أفعالها وتأثيرها بأقداره وبمشيئته لا بقدرها فلا يتزلزل ولا يضطرب بحال وإن شاهد منها عجائب الأحوال)[1].

بل إن الانشغال بعلم التنجيم دون توقف هو ضرب من ضروب تعلم السحر ومن ثم الكفر بالله تعالى لإرضاء الشياطين، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنْ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ)[2]، والحد المسموح به هو تعلم علم تسييرها لما روي عن أبي هريرة مرفوعا قال (وتعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا)[3].

قال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الواقعة: 83 - 87].

تحدى الله تعالى الذين يصرون على الحنث العظيم أن يستعيدوا أرواحهم بعدما تخرج من أجسادهم، للتأكيد على أنهم مدينون بأراوحهم لله تعالى، فالله هو الذي أعطاها وهو الذي أخذها، وليس له في ذلك طاقة ولا حيلة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، تحداهم بذلك ليقروا بضعفهم وعجزهم، وليستعينوا بالله في قضاء حوائجهم، وليستهلكوا أعمارهم في طاعة الله.

---

[1]) فيض القدير ج1 ص 264

[2]) رواه أبـو داود ج10 ص 412 رقم 3406 وصـححه الألبـاني: صـحيح ابن ماجـه ج2 ص 305 رقم 3002

[3]) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، جمـع الجوامـع للسـيوطي ج1 ص 11034 و روي عن ابن عمـر (ابن مردويـه) وضـعفه الألبـاني من حيث السـند، لكن معنى الرواية صحيح وموافق للأصول

قوله: (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ)[1] لولا حرف تحضيض، أي حض على التوبة قبل الغرغرة، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ قَالَ الرَّبُّ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي)[2]، قال حقي (لولا) (للتحضيض لإظهار عجزهم)واذا ظرفية والحلقوم مجرى الطعام، أي فهلا اذا بلغت النفس؛ أي الروح او نفس احدكم وروحه الحلقوم وتداعت الى الخروج وهو كناية عن غير مذكور وفي الحديث « ان ملك الموت له اعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيئًا فشيئًا حتى ينتهى بها الى الحلقوم فيتوفاها ملك الموت »[3]، فها هي الروح، تلك المعجزة الإلهية التي لا يعرف كنهها إلا الله وماذا يحدث حين تخرج من الجسد وساعة خروجها؟ سبحان الله، فقبل أن تخرج الروح من الجسد يعيش المرء سكرات تعرف بسكرات الموت وحين تبلغ الحلقوم يكون قد انتهى الأجل حقًّا، وحينئذ تكون قد وقعت الواقعة التي ظل يكذب بها المكذبون، فهل حينها لا يزالون يصرون على الحنث العظيم؟

قوله: (وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ): توصيف لحالة العجز التي أصابتهم، لا يقدرون على فعل شيء لمن حضرته سكراته الموت غير مجرد الجلوس حوله والنظر إليه [4]، وتلقينه الشهادتين، سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ (**لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِأَبِي طَالِبٍ يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ)**[5]، والآية شرعت النظر

---

[1]) أي الحلق وذلك حين الاحتضار قاله ابن كثير في تفسيره

[2]) رواه أحمد ج22 ص 352 رقم 10807 وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 103 رقم 104

[3]) تفسير حقي ج15 ص 86

[4])قال الزجاج: وأنتم يا أهل الميت في تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه، والمعنى: أنهم في تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه، ولا يستطيعون شيئًا ينفعه في هذا المعنى الشوكاني في فتح القدير ج7 ص 138

[5]) رواه البخاري ج5 ص 146 رقم 1272

للميت، وقد يكون مصحوبا بالبكاء دون ارتفاع للصوت، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَذْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ صلى الله عليه وسلم إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ)[1].




في تلك اللحظة لا يدرك من يحتضر من حوله، فهو الآن يعيش ما بين الدنيا والآخرة، إنه لمشهد مهيب أن يرى المرء بنفسه لحظة موته، من الذي أماته والجسد صحيح بل قد لا يزال شابا قوي البنية لا يعاني من الأمراض، فهو يتابع خروج روحه لحظة بلحظة، يعيش - الآن - عالم آخر غير الذي كان يعيشه في الدنيا، إنه الآن أمام ملك الموت ليقبض روحه أتي لينفذ أمر الله تعالى، ويقضي بقضائه وهو ينظر إليه.

قوله: (**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ**)، قال السمرقندي: يعني (**أمر الله تعالى وهو ملك الموت أقرب إليه منكم، حين أتاه لقبض روحه (ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ) ما حضر الميت**)[2]، سبحان الله أمر الله نافذ وقريب من عبده الذي حضره ملك الموت، فالله سبحانه قريب لعبده عند قبض روحه، فليس هناك أقرب من الله تعالى لهذا المحتضر؟ اقترب موعد

---

[1]) رواه البخاري ج5 ص 57 رقم 1220

[2]) بحر العلوم ج4 ص 245

لقاءه مع الله، أضحى قريب من الآخرة، شارعا في مغادرة الدنيا، أين الدنيا التي أترف فيها؟ إنها بعيدة المنال، أين الأطفال والأولاد والزوجة والضيعات؟ كل ذلك ليس في متناوله اليوم، في هذه اللحظة يصدق المرء حقًّا أنه لم يكن على حق حين أصر على الحنث العظيم، فيومئذ وقت الواقعة، فمن مات قامت قيامته، يعلم أنه لم يكن على صواب حينما أحب ترف الدنيا ونعيمها ليزهد فيما عند الله، إنه اليوم مدين لربه ولم يوف ما عليه من دين كان يكذب به، فهل ينفعه حينئذ التصديق؟ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ فَأَغْمَضَهُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ فَقَالَ لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ)[1].

قوله: (**فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**)؛ أي لو أنكم غير مربوبين ومقهورين لله تعالى لاستطعتم أن ترجعوا أرواحكم حال قبضها إلى أجسادكم، ولكنكم عبيد لله تعالى فإنكم مدينين له، وغير قادرين على ذلك، بيد أنكم ظننتم أنكم لن تبعثوا ولن تحاسبوا؛ كما في قوله: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون: 115]، وقوله: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا**﴾ [النبأ: 27].

ظنوا أنهم مالكون الدنيا وليس بعد الموت حياة يحاسبون عندها على ما كانوا يفعلون، قال الألوسي (**وحاصل المعنى أنكم إن كنتم غير مربوبين كما تقتضيه أقوالكم وأفعالكم فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن إذا بلغت الحلقوم وتردونها كما كانت بقدرتكم أو بواسطة علاج للطبيعة**)[2]، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (**إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر**) [3]، أغلق الله تعالى باب التوبة في هذه

[1]) رواه مسلم ج4 ص 480 رقم 1528
[2]) روح المعاني ج27 ص 159
[3]) رواه الترمذي ج5 ص 547 رقم 3537 وحسنه الألباني

اللحظة، لماذا؟ لأنه انتقل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وكانت هذه الغرغرة وسكرات الموت هي أول لحظات اليقين، فلا ينفع إيمان بالغيب حينئذ لأنه أضحى شهادة ولم يظل غيبا، وعندئذ يقول (**رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت**) لكن لا مفر له حينئذ، فهو عاجز عن أن يسترجع روحه، فالقابض هو الله سبحانه لا يفلت روحا إذا قبضها، قال تعالى: **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (النحل/61).**

قال تعالى: **فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** [الواقعة: 88 - 96].

انتقلت الآيات إلى عالم الغيب مرة أخرى بعد أن سارت معنا تصور كثيرا من مشاهد عالم الشهادة، لتختتم الآيات بإعادة التذكير بما بدأت به، وهو مصير الأزواج الثلاثة يوم القيامة، فكما ذكرنا من قبل أن هؤلاء الأزواج هم السابقون السابقون، وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فأما السابقون السابقون فهم المقربون من الله تعالى، وقد وصف الله لنا جزاءهم في الجنة، فالآيات الخاتمة لهذ السورة تصور كذلك حال أرواح هؤلاء الأزواج الثلاثة بعد لحظة القبض وقبل دخول الجنة، أي في الحياة البرزخية؛ أي فهي حياة ولكن داخل القبر، فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ قَالَ (**الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا**

وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ)[1].

قوله: (**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**)؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم (إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي راضية مرضيًّا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان فتخرج كأطيب ريح المسك؛ حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا حتى يأتون به باب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحًا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان ماذا فعل فلان..) [2].

قوله: (**وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**)؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى سماء) [3]، وبالجملة إذا كان العبد من أصحاب اليمين فإنه قد وصل بالموت إلى محطة السلام، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه

---

[1]) رواه البخاري ج20 ص 171 رقم 6031

[2]) رواه النسائي ج4 ص 8 رقم 1833

[3]) رواه الحاكم في مستدركه ج1 ص93 رقم 107 وابن حبان في صحيحه، وغيرهما وصححه الألباني انظر الجامع الصغير ج1 ص 256 رقم 2556

وسلم أتى المقبرة فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)[1]، انتهى نصبه وتعبه وما لاقاه من أذى في سبيل الله تعالى، ليبدأ له عهد جديد من السلام والطمأنينة والسرور.

قوله: (**وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**)؛ أي في مقابل هذين الفريقين نجد المكذبين الضالين قد فارقوا -بالموت- أرض الدنيا، فارقوا النعيم والترف للأبد ليبدأ حسابهم وتنزل عليهم عقوبة ربهم، (فنزل من حميم) وقد تقدم وصفه لكن هنا يكون العذاب في القبر ليصلي جحيم في صورة مصغرة من عذاب يوم القيامة (**إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ**)[2]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ**)[3].

قوله: (**إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**)؛ قال أبو جرير الطبري **(فأما المؤمن فأيقن في الدنيا، فنفعه ذلك يوم القيامة. وأما الكافر، فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه)**[4]، ففي الحديث اطلع النبي صلى الله عليه وسلم على أهل القليب – وهم قتلى المشركين يوم بدر - فقال (**وجدتم ما وعد ربكم حقا**؟) فقيل له تدعو أمواتا؟ فقال (**وما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون**)[5]، نعم أتاهم اليقين الذي لا تكذيب بعده، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول حق**)[6]، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن**

---

[1]) رواه مسلم ج 1 ص 218 رقم 249
[2]) رواه الترمذي ج8 ص 500 رقم 2384
[3]) رواه ابن ماجه ج12 ص 320 رقم 4257
[4]) تفسير الطبري ج23 ص 164
[5]) رواه البخاري ج1 ص 462 رقم 1304
[6]) رواه البخاري ج1 ص 462 رقم 1305

أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)[1].

قوله: (**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**)، سبحان الله أليس هذا يستأهل التسبيح؟ عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ يَقُولُ لَمَّا نَزَلَتْ: "**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**"، قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ)[2]، قال الشيخ أبو بكر الجزائري: (**بعد إقامة الحجة على منكري البعث بالأدلة العقلية، أمر تعالى رسوله أن يسبح ربه أن ينزهه عن اللعب والعبث اللازم لخلق الحياة الدنيا على هذا النظام الدقيق ثم إفنائها ولا شيء وراء ذلك؛ إذ البعث والحياة الآخرة هي الغاية من هذه الحياة الدنيا فالناس يعملون ليحاسبوا ويجزوا فلا بد من حياة أكمل وأتم من هذه الحياة يتم فيها الجزاء وقد بينها تعالى وفصلها في كتبه وعلى ألسنة رسله، وضرب لها الأمثال فلا ينكرها الا سفيه هالك**)[3].

---

[1]) رواه البخاري ج1 ص 464 رقم 1213

[2]) رواه ابن ماجه ج3 ص 129 رقم 877 وحسنه الألباني المشكاة (879). ثم ضعفه هداية الرواة (840)، تمام المنة (ص 190)، إرواء الغليل (334)، ضعيف أبي داود (152- 153)، ضعيف الموارد (48) 68.

[3]) أيسر التفاسير ج4 ص 198